International Novels

روايات عالمية

Alberto Moravia

ألبرتو مورافيا

شباب امرأة

Womam Youth



شباب امرأة

شباب امرأة

تأليف:
ألبرتو مورافيا

إعداد وتقديم
د/ الحسينى الحسينى معدى

الإشراف العام
محمود عبدالرحمن
ياسر فوده

الناشر



تليفون: ٠١٠٦٦٩٥٢٧٩ ـ ١٢٠٢٤٢٢٣٩٣

رقم الإيداع: 2452/2012

الترقيم الدولى: 0-113-5079-977 - 978

الطبعة الأولى

2012

ألبرتو مورافيا

شباب امرأة

إعداد وتقديم

د/ الحسيني الحسيني معدي





إلى روح..

أخى وصديق العمر

ياسر فوده..

عشت ومازلت تعيش فى

قلوبنا

محمود

■ ■



التحقت بخدمة الجيش وكانت سني لم تبلغ الخامسة والعشرين من عمري... وكان والدي رجلا فقيرا وعائلا لأسرة كبيرة مكونة من فتاتين وأربعة أطفال، ولذلك لم يكن لدي الخيار في أن أختار تلك المهنة نظرا لفقر والدي الشديد ونظرا لأن الدولة كانت تتكفل بمصاريف مدرسة الجندية.

ومن هنا بدأ خيط حياتي تلقائيا وبدون أي إجهاد أو تفكير، وتخرجت وأصبحت ملازما في الجيش بعد سنوات قليلة، وأصبح الشاب اليافع معلما صغيرا يهذبه التهذيب وينخرط في سلك الجندية.

لم أسأل نفسي ولم يسألني الآخرون: هل يسرني العمل في سلك المدفعية أم لا...؟

وعندما بدأت أركب الخيول وأعتلي صهوتها وجدتني في حالة جيدة، ولم أعد أطمع بالمزيد في شيء...

وذات يوم جاءتنا الأوامر أن نذهب إلى إحدى المدن النمساوية وليس مهما أن أذكر اسمها لأن المراكز النمساوية تتشابه جدا ولا فرق بين واحد وآخر في هذه الثكنة كما في تلك... إذ ترتفع العمارات علي طراز واحد، بناء كبير، أرض لإجراء التمارين عليها، وكازينو خاص للضباط، بالإضافة إلى ثلاثة فنادق ومقهيين.

كانت حياة الجنود في ثكناتهم لا تتغير... يمر الوقت رتيبا هادئا، مقسما إلى ساعات وساعات دون تغيير كبير يذكر في أمور التسلية... نفس الحديث بين الضباط، كذلك نفس لعب الورق في المقاهي وسباقات البلياردو.

كان موقعي في الحقيقة يتفوق على موقع مدينة جاليسي التي كنت أعسكر فيها من قبل إذ أنه يقع بالقرب من فيينا، ومن

ناحية أخرى لا يبعد كثيرا عن بودابست.

وذات صباح إذ كنت أجلس في الباتيسيري، وكان يجلس معي الصيدلي صاحب الصيدلية الوحيدة في المدينة، وقد جلسنا نتناول بعض الطعام ونتجاذب أطراف الحديث، إذ فتح الباب بعنف وانطلق الهواء البارد الذي يشبه القذيفة فيلسعنا برد قارس، ثم تظهر فتاة رائعة الجمال وتتقدم تلك الفتاة من مقصف البار وهي ترسم ابتسامة على شفتيها.

لم يسترع شيء ما نظري قدر تلك الابتسامة التي ارتسمت على وجه صاحب المقهى «جروسماير» وتلك الانحناءة التي حياها بها... وبعد أن تبادلت معه حديثا قصيرا أخذ يهيئ ما طلبته من الحلوى وأخذت أنا والصيدلي ننظر إليها بفضول شديد، بينما هي لم تلتفت حتى ناحيتنا على الإطلاق.

وسمعنا صوت الرجل جروسماير وهو يعدها بأن يصل ما طلبته إلى المنزل فورا دون إبطاء، وقد كان ذلك متوقعا منه إذ انه من غير المعقول أن تحمل صاحبة هذا الجمال شيئا ما بيديها البضتين، كما أنها لا تفكر مثلنا نحن المحكوم علينا بالموت اجلا أم عاجلا أن تدفع قيمة مشترواتها نقدا.

عرفنا عند ذلك أنها أحد زبائن المحل رفيعى المقام والجاه.

وعندما تم تجهيز كل ما أرادته التفتت وتقدم جروسماير امامها مسرعا وهو يفتح لها الباب كما أن شريكي وقف محييا،

وشكرتهما هي بابتسامة مقتضبة وانصرفت مسرعة إلى الخارج.

وتركت المكان وهي تنهال عليها عبارات التحية والثناء والاحترامات البالغة، الأمر الذي دعاني أن أسأل شريكي:

- من هذه الفتاة الجميلة؟

- كيف لا تعرفها؟ إنها ابنة أخي السيد كيكسفالفا... ألا تعرفه؟

رماني بهذا الاسم وكأنه وضع أمامي ورقة مالية من الفئة الكبيرة جدا، ثم أخذ يتطلع إليَّ وكأنه ينتظر ماذا سيحدث لي من تعجب طبيعي وقلت أبادره بالجواب:

- آه... أجل معلوم...

ولكنني كما تعلم حديث العهد في هذه الثكنة وأجهل كل شيء عن هذه المنطقة كما أجهل كل شيء أيضا عن هذا الجمال الرائع الذي شاهدته منذ لحظات قليلة، لذا أرجوك حدثني عن هذه الفتاة، وحدثني أيضا عن هذا الرجل.

- إن الرجل هو أغنى رجال هذه المنطقة، كل شيء ملكه تقريبا هنا، وذلك القصر الأصفر ملكه أيضا، ومعمل السكر... ومربض الخيول غير الذي يملكه في بودابست من منازل...

كما أن الرجل كريم غاية الكرم ويقيم حفلات يومية... في منزله ويقوم بدعوة الضباط إلى تلك الحفلات، هل تريد أن

اذهب إليــه وأجــعله يرسـل إليك دعـوة لحــضــور إحــدى تلك الحفلات؟...

فقلت له بسرعة البقر وكأنني أنتظر بفارغ الصبر:

ولم لا؟ إنني أكاد أختنق في هذه الثكنة العسكرية، أكتفي بالمشاهدة فقط حتى مللت الحياة العسكرية كلها...

لقد عرفت الناس كلهم حتى سئمت الوجوه من كثرة مراقبتي لها... فلمـاذا لا نخـرج ذات مـسـاء من تلك السـفـينة المحكمـة الإغلاق إلى طريق النجاة؟! ثم تلك الفتاة وعيونها المخملية، لماذا لا أجدد رؤياي لها مرة أخرى؟

إنه سـيكون من دواعي سـروري أن أراها وأن أتعـرف إلى السيد كيكسفالفا.

ولم يكن السيـد «لي» كـاذبا في وعـده لي إذ أنه أحـضـر لي بعد يومين دعـوة مكتوبة قدمها لي بكل فخر كتب عليها اسمي والقول في سطورها:

يتشـرف السيد كيكسفـالفا بدعوة الملازم هوفميلر لتناول العشاء معه في منزله في تمام الساعة الثامنة يوم الأربعاء في الأسبوع المقبل.

لبست أجمل ثيابي وذهبت حسب الموعد المتفق عليه وخرجت لأقوم بأول زيارة تعارف أقوم بها، وذهبت إلى القصر وبعد أن

قام الحاجب بفتح الباب وأعطيته البطاقة تأسف وقال لي:

- آسف يا سيدي لقد خرج السيد والسيدة إلى زيارة هامة وهما يعتذران لعدم استقبالك ويطلبان فرصة أخرى للتعرف عليك.

قلت في نفسي:

ـ حسنا إن أول زيارة تعارف لم تتم وانصرفت، ولم يكد يمضي يومان حتى وصلتني دعوة أخرى من السيد... وزاد ذلك من سروري.

إذ تأكدت من أن السيد يرغب بالفعل في التعرف علي. وفي مساء اليوم المحدد وقعت حادثة في المعسكر استدعت وجودي وتأخرت عن ميعاد الحفل الذي كنت أنتظره بفارغ الصبر...

ولم أكد أنهي التحقيق حتى تسللت دون أن يشعر بي أحد، وتشاء الصدف أن تزيد الأمور تعقيدا،

ـ إذ أنه لم تكن هناك عربة تقلني إلى القصر وتأخرنا أكثر وأكثر وعندما وصلت إلى القصر كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف.. أي تجاوزت الموعد بنصف ساعة.

وكانت المعاطف في المدخل تتكوم فوق بعضها، ونظر إليَّ الحاجب متعجبا من أمري وتأخري وقادني إلى غرفة الجلوس ومنها إلى غرفة الطعام، حيث كان المدعوون يتناولون طعامهم،

وأعلن الخادم عن اسمي فتطلع الجميع إلي وهم ينظرون...

كانوا ما يقرب من الأربعين مدعواً لم يسبق لي أن رأيت أحدهم، ووقف أحد الرجال فعرفت على الفور أنه السيد كيكسفالفا كان منبسط الأسارير.

وكان ترحيبه بي غاية في الكرم مما جعلني أحس أن هذا الرجل سيوطد صداقته سريعا بي...

وقدمت اعتذاري إلى الرجل عن تأخري في الوصول متحججا بأن ظروف الجندي دائما رهن بالأوامر التي تصدر إليه، وأخذ الرجل يقدمني إلى باقي المدعوين وقال:

هذه ابنتي... وأشار إلى فتاة لم تنضج بعد رقيقة... شاحبة الوجه... ضعيفة البنية... مثل الرجل تماما إلى حد بعيد، وأخذت الفتاة تتفحصني بعينين رماديتين لم أكن ألاحظها حتى التفتُ فجأة فرأيت الفتاة وقد سلطت عينيها على وجهي لتفرسني خلسة.

شعرت في الثلاث دقائق الأولى بعدم ارتياح من هذا الجمع، إذ أنني لم أكن أعرف أحدا منهم ولم يكن بينهم أحد من رفاقي في الثكنة أو أحد الأشخاص الذين تعرفت إليهم عند وصولي إلى المدينة، وكيف أتحدث مع هؤلاء القوم؟

ولكن كان من حسن حظي أن مجلسي بين الفتاة التي شاهدتها منذ فترة وقد لاحظت أنها تنظر إليَّ هي الأخرى

وابتسمت بهدوء.

رائع أن تكون بقرب فتاة عل درجة كبيرة من الجمال، والموسيقى تعزف، وأنه لطيف أيضا أن توجد في غرفة مضاءة بهذا الجمال من تلك الثريا الهائلة الحجم المدلاة من السقف، تكاد تتوهج من قوة الإضاءة التي بها، ودارت دورة الشراب اللذيذ الطعم، وأصبحت أرى كل شيء أمامي رائعا، وأدركت أن الصيدلي لم يكن كاذبا للمرة الثانية.

حينما قال إن قصر السيد لا يقل روعة عن القصور الملكية... حتى أنني لم آكل يوما أو حتى أحلم بأن هناك من يأكل بهذه الكثرة وتلك الفخامة.

منزل رائع ممتاز، وسهرة أروع وأمتع، وأصبحت أتكلم بانطلاق بعد أن تعودت على المكان والمدعوين، وأخذت أشرب وأشارك البعض ضحكاتهم الصاخبة ومن آن لآن تتقابل نظراتي مع «أيلونا» قريبة صاحب الدعوة الرائعة.

ودخلنا إلى قاعدة الاستقبال بعد أن فرغنا من الطعام وعزفت فرقة موسيقية وتقدمنا للرقص وشاركتني أيلونا الرقصة الأولى وتقدمت إلى جارتي الثانية أطلب منها مشاركتي الرقصة الثانية فوافقت وكانت تجيد الرقص، ولا أظن أنني رقصت هكذا طيلة حياتي...

كانت تجيد الرقص، وكلما انحنيت أو قربت وجهي منها

اشتم رائحة ذكية تفوح من شعرها الجميل...

كما أنه لم تمر بي فترة سعادة كالتي أعيشها الآن. إذ أنني احسست بأنني أريد أن أقوم بتقبيل جميع الناس والتحدث إليهم ثم أنني أخذت أتنقل من رقصة إلى أخرى...

وأتحدث مع من يقابلني وأضحك وتحملني أمواج من السعادة وتسلمني إلى بر من الطمأنينة... حتى لم أعد أعبأ لمرور الوقت.

وفجأة تطلعت إلى ساعتي بالصدفة فكانت تشير إلى العاشرة مساء ومرت بخيالي فكرة: لقد مر عليَّ ساعة وأنا أرقص وألهو ولم أطلب إلى الآنسة كيكسفالفا أن تراقصني أو اتحدث معها... لقد رقصت مرة أو مرتين مع النساء اللائي اعجبنني ونسيت قطعا آنسة البيت...

يا لها من وقاحة!! عليَّ أن أصلح هذا الموقف سريعا.

وأخذت أبحث عنها حتى وجدتها أخيرا ترتدي ذلك الثوب الأزرق الجميل، وهي تجلس بين سيدتين عند آخر الممر وراء طاولة خضراء، وهي تتطلع بعينيها شاردة إلى سقف الحجرة، فاتجهت إليها ووقفت قبالتها وقلت لها:

- هل تسمحين لي يا آنستي؟

إن ما حدث لي كان رهيبا مخيفا... إذ تراجعت الفتاة

بهامتها إلى الوراء فجأة وكأنها تحاول تجنب ضربة ما، صعد الدم إلى وجنتيها... وزمت شفتيها المنفرجتين قبلا.

بينما تسمرت عيناها فوق تطلعاتي إليها باندهاش وحيرة، ثم عرتها رعشة هزت جسمها النحيف... وفجأة انفجرت باكية.

تطلعت وإذا بالسيدتين المحيطتين بها تنهضان سريعا لمساعدتها وتهدئة أعصابها ويجلسانها في كرسيها لكي ترتاح، بينما البكاء يتصاعد قويا ليتحول إلى شهقات متوالية أشبه بإنسان مريض يلفظ أنفاسه الأخيرة.

حدث كل هذا وأنا واقف هناك أنظر، ماذا؟ ماذا حدث، ودون أن أدري.

كيف يجب أن أتصرف؟

كنت أنظر إلى السيدتين وهما تحاولان تهدئة الفتاة وقد وضعت رأسها فوق الطاولة وكفت عن البكاء لتعود إليه بين فترة وأخرى.

شهقات تهز جسمها وتزيدها تعلقا بالطاولة أمامها، وأنا مازلت أقف هناك جامداً حتى الشلل، يشد عنقي شيء من الفتور والاشمئزاز.

ووجدت نفسي أنتزع كلمة (عفوا) رغما عني وأنا أتطلع إلى السيدتين ولكنهما لم تتطلعا إلي، فعدت أدراجي إلى غرفة

الاستقبال وأنا أترنح من المفاجأة، ونظرت حولي أتطلع هل لاحظ أحد شيئا عن بعد مما حدث؟

ولكنني لاحظت أن الأزواج كانوا لا زالوا منهمكين في صخبهم، وشعرت بأنه ينبغي علي أن أتكئ على شيء بجانبي إذ أنني شعرت بأن الدنيا تميد تحت قدمي وأن كل شيء يدور من حولي وأمامي.

ولم أستطع أن أخمن ماذا حدث بالضبط يا ترى؟

هل أقدمت على عمل شيء أم إنني أفرط في التلفظ بقول شيء أمام الآنسة بدون أن أعي؟

وفجأة سكنت أصوات الموسيقى وانفصل الأزواج، ولم تكد تلك اللحظات تنتهي حتى أسرعت إلى أيلونا وأخذتها من يدها وانتحيت بها إلى زاوية منفردة وقلت لها:

- أرجوك ساعديني، بحق السماء تدخلي في هذا الموقف الغريب الذي حدث، اشرحي لي هل هناك خطأ ما مني.. أم ماذا؟

ونظرت إليَّ أيلونا نظرة تملؤها الدهشة والاستغراب من هذا الكلام، إذ أنها ظنت أنني أتيت بها إلى هذا الكلام المنفرد كي أقول لها شيئا مضحكا أو أطارحها الغرام.

ولما رأيت تلك العلامات انبريت وأخذت أشرح لها ما حدث وقلبي يرتجف من الخوف، وانتظرت أن تشرح أيلونا لي سر هذا التحول المفاجئ وإذ بها تنظر إليَّ باستغراب أكبر وهي تقول لي:

- هل جننت؟

- ألا تعرف ما حدث بعد؟

- ألم تشاهد عيناك؟

قلت لها بصوت منخفض وقد أحسست بأن هناك شيئا بالفعل:

لا ... لا أعرف ولم أشاهد شيئا.

- إذن إن أديت... إنها مقعدة... ألم تلاحظ سيقانها المغطاة... إنها لا تستطيع أن تخطو خطوتين متتاليتين بدون أن تتكئ على عكازيها...

- ثم نظرت إليَّ بغضب وقالت:

- كيف تجرؤ على أن تطلب منها هذا الطلب القاسي، إن ذلك لشيء رهيب، دعني أذهب إليها وأشرح لها أنك تجهل الحالة التي هي عليها.

وحاولت الانصراف ولكني أمسكت بيدها وقلت لها:

- لا أرجوك اسدي لي هذه الخدمة، أن تشرحي لها هذا

الكلام وأنا معك بجوارك... إنني لا أستطيع أن أتحمل نظراتها وانا بمفردي معها بعد ذلك.

ونظرت إلي أيلونا بغضب ثم انصرفت تعدو إلى حيث «أديت» في الغرفة التالية، وبقيت أنا وحيدا أنظر إلى المدعوين والقرف يملأ فمي، وضقت بما حدث لي حتى أيقنت أنني لن استطيع الاحتمال في هذا المكان أكثر من ذلك.

وظننت أن الجميع سيدركون بما حدث للآنسة «أديت» وكنت أنا سببه، إنها مدة لا تتجاوز الخمس دقائق فقط بعدها احسست بأنني سأكون محط الأنظار التي ستتجه إليَّ دون شك انظار محتقرة مندِدة، ثم تنتقل الأخبار إلى المعسكر وتنتشر في جميع أرجائه بين كل الرفاق.

ونظرت فوقع بصري على الأب وهو متجهم الوجه لعله عرف بما حدث لابنته، يعبر الصالون.

هل تراه قادما نحوي؟ لا يجب أن ألقاه الآن. لقد كنت أخاف منه ومن الجميع، خوف هائل يعتريني، ثم دون وعي اندفعت إلى خارج الصالون متجها نحو الباب أنوي الخروج من هذا البيت العنكبوتي الذي ينسج خيوطه حول أنفاسي.

وسألني الخادم مندهشا:

- هل ينوي السيد أن يرحل الآن قبل انتهاء الحفل؟

وقلت له وأنا أرتدي معطفي ودون أن أنظر إليه:

- أجل...

كلمة لفظتها وأنا أرتجف خوفا.. هل فعلا كنت أنوي مغادرة الحفل.. أم أنني كنت أهرب من خطأ العمر الذي ارتكبته؟ وجدت نفسي خارج المنزل والبرد يلفح وجهي المتجهم، وقلبي يخفق، وأنا ألهث أشبه بالغريق.

إنني أعجز عن وصف الحالة النفسية التي كنت أعانيها عندما خرجت من المنزل، لقد توقفت الموسيقى عن العزف خلف النوافذ المضاءة ولم يكن ذلك سوى فترة استراحة...

ولكنني تخيلت أنها لم تسكن إلا فترة الحديث عن فعلتي أي بسببي أنا، وأن الجميع ملتفون الآن حول الفتاة وهم يسبونني محاولين بذلك أن يخففوا عنها هي ويزيدوا آلامي أنا...

النساء والرجال جميعهم يعبرون بسخط من خلف هذا الباب المقفل عن هذا الرجل الذي يدعو فتاة مقعدة، مشلولة الحركة كي ترقص معه، ثم يركن إلى الفرار. وغدا عندما أتذكر ذلك سيتساقط العرق بغزارة من جبهتي.

وصلت أخيرا إلى حجرتي وقذفت بنفسي إلى الفراش وغلبني نعاس متقطع، ومن حين لآخر يظهر وجه الفتاة التي أهنتها أمامي.

رأيت شفتيها ترتجفان ويديها تتمسكان بالطاولة، ثم الخوف المبهم عندما رأيت والدها يفتح الباب وينتصب أمامي فقمت من نومي مذعورا وقفزت من الفراش وجلست إلى النافذة حتى بزغ الضوء.

وهداني تفكيري إلى أن أذهب إلى المدينة ومن هناك أرسل إليها باقة من الزهور، وبالفعل تم لي ذلك وشعرت الآن بتحسن كبير، فعدت إلى الثكنة وشربت قهوتي.

وقمت بعملي المعتاد ولكني مازلت أشعر بنوع من المرارة التي تحز في قلبي.

وبينما كنت أتناول طعام الغداء في فترة الظهيرة، إذ جاءني مساعدي وهو يحمل لي خطابا أزرق اللون معطرا يحمل توقيعا رقيقا يدل على أن كاتبته امرأة، وفضضت الكتاب وقرأت ما فيه:

(اشكر سيدي الكولونيل حسن اختياره من أجل زهور هي اجمل مني تستحقها فتاة غيري، لذا هل أستطيع أن أعبر عن سعادتي الكبيرة... أرجوك احضر لتتناول معي طعام الغداء).

خط ناعم دقيق، يذكرني بتلك الأنامل الجميلة التي فوق الطاولة، ثم الوجه الشاحب الذي تلون حمرة في الحال ككأس ماء تضيف إليها شرابا أحمر.

أخذني العجب لصفحها السريع عن خطيئتي ثم المهارة

والصراحة التي تعلن بها عن قصورها، ثم ليس هناك ما يشير إلى أي نوع من الحقد...

وينزاح عن كاهلي ذلك العبء الثقيل الذي جثم علي، إنني كالمتهم الذي ينتظر بفارغ صبر لحظة نطق الحكم الذي ربما يقضي عليه وربما يأخذه إلى الحرية والبقاء... وعزمت على الذهاب إليها يوم الخميس القادم...

ـ لا، ليكن يوم السبت.

لم يكن بإمكاني الانتظار تلك المدة الطويلة، كان الارتباك يدفعني إلى أن أعرف إن كان قد غفر لي خطيئتي أم لا، إن عليَّ أن أنهي هذا الموضوع بأسرع مما ينبغي.

وجاء اليوم الذي حددته لنفسي للزيارة، وقررت الذهاب إلى هناك سيرا على الأقدام لأن الطريق لم يكن طويلا جدا، نصف ساعة فقط إذا أسرع الإنسان الخطى.

وكنت كلما اقتربت من المنزل أحس بأن الشجاعة بدت تخونني وأن قواي بدأت تخور، وفجأة قررت التراجع وأن أعود من حيث أتيت.

أكان من الواجب أن أحضر اليوم فعلا، ألا يجب أن أعتبر هذا الحدث أمرا مفروغا منه بعدما تلقيت تلك الرسالة؟

وخففت الخطى، إذ أنه مازال لدي الوقت الكافي لمتابعة

الطريق... عندما نتردد نسلك أطول الطرق، لذلك عبرت النهر الصغير فوق الجسر الخشبي ووقفت في الحقول أتأمل البيت من الخارج.

وأخيرا بعد أن قمت بدورة حول القصر عدت إلى البوابة إذ يتوجب علي أن أقرر الآن.

سرت في الممر الرخامي تحت ظلال الأشجار العالية المنسقة وإذا بأحد الخدم يظهر فلم يدهش لمرآي. ثم بدون أن يطرح علي أي سؤال أو يأخذ بطاقتي التي كنت هيأتها مسبقا قال لي:

- إن السيدات مازلن في غرفهن فليسمح الكابتن بالانتظار في الصالون.

حاولت أن أشغل نفسي بالتأمل فيما حولي من أثاث وتحف ولكن لم يكن لدي الوقت الكافي وإذا بي أسمع صوت أقدام تسير، إنها عكازات «أديت» وإذا بيد غير مرئية تفتح الباب على مصراعيه، إنها يد أيلونا التي كانت ترافق أديت واتجهت نحوي:

- كم أنت لطيف بمجيئك.

وقادتني إلى الركن المشئوم، نفس الزاوية ونفس الكرسي... وراء الطاولة حيث كانت تجلس الفتاة المقعدة وتستقبلني ببشاشة مدروسة تبتسم، سيطر علينا ارتباك وتململ حتى لم يدر ما يقوله كل منا إلى الآخر. وإذا أيلونا تتدخل لتفض ذلك الصمت وتخرجنا من حيرتنا:

- ماذا تريدني أن أقدم لك يا سيدي، شايا أم قهوة؟

- الذي ترغبينه أنت.

- لا . الذي ترغبه أنت دون مجاملات طبعا .

- الشاي إذن...

وسررت لأن صوتي كان جهوريا لا ارتباك فيه.

كان ذلك مهارة من تلك الفتاة لتخرجنا من الحيرة التي تغللت علينا .

أما الارتباك فقد نتج عن تركها لنا وانصرافها إلى تدبير شئون المنزل مما تركني وحيدا مع أديت.

وحان الوقت لكي نبدأ الحديث... ولكنني كنت أشعر بأن هناك ما يمنعني عن النطق وتوجيه الكلام إلى تلك الفتاة التي تجلس أمامي.

ولربما ظننت أنني كنت أتطلع إلى الفراء الذي يغطي أقدامها المشلولة ولحسن حظي أن أديت كانت تتمتع ببرودة لا تقل عن برودتي فتطلعت إلي وقالت:

- لماذا لا تجلس يا سيدي؟ اجلس هنا بجواري.

قدمت إلي المقعد وقالت بحيوية:

- عليَّ أن أشكرك أولاً على الزهور التي أرسلتها إليَّ، أنظر.

كم هي جميلة في ذلك الإناء، ثم، ثم علي أن أشكرك على أنك حضرت ملبيا الدعوة اليوم...

إنني أريد أن أقدم اعتذاري لك عن عصبيتي ذلك اليوم إنه مخيف... لم أستطع أن أنام...

وكم كان تصرفي شائنا وكنت أتمنى أن أقول لك إن فكرتك جميلة إذ كيف يمكنك أن تشك في حالتي الصحية...

لقد كنت أجلس بطريقة تمكنني من مشاهدة الراقصين وعندما حضرت كنت فعلا أتشوق للرقص أنا أيضا، إذ أنني أجن بالرقص... يمكنني البقاء ساعات وساعات أتشوق للرقص..

أنا أتطلع إلى الناس وهم يدورون ويلفون وأحس بأن كل حركة يقومون بها هي ما أقوم به أنا أيضا ليس هو الآخر الذي يرقص بل أنا التي تدور... تنطوي... تهتز... تتمايل...

كنت وأنا صغيرة أرقص جيدا يخالجني سرور كبير، والآن عندما أحلم يتبادر أول ما يتبادر إلى ذهني الرقص ولعل ما اصابني هو فائدة لأبي، وإلا كنت الآن راقصة في أحد الملاهي...

ليس هناك ما يستهويني ويثيرني كالرقص وها أنا اليوم اجمع صور الراقصات وأحتفظ بها في ألبوم جميل .

شعرنا بحركة خلف الباب ودخل الخادم يحمل صينية الشاي، وقدمته لنا «أيلونا» ثم جلست بالقرب منا ووجدتني أعقد

عملية المقارنة بين الفتاتين... إنها عملية غير عادلة أن أقوم بها ولكني وجدت رغما عن نفسي، أنني أعقدها...

إن أيلونا أصبحت امرأة بكل معنى الكلمة.. رشيقة القوام.. مملوءة الجسم، تبدو أديت إلى جانبها ولدا صغيرا لم يكتمل نموه بعد... إنه تضاد غريب يجمع بينهما.

يودون حضن الأولى والرقص معها لحلاوتها... أما الثانية فيخففون عنها ويدللونها كالمريض ويرعونها...

إذ أن شخصيتها لا تستقر عند حال، تبعث على الارتباك في النفس الإنسانية... لا يستقر وجهها لفترة واحدة، تتطلع إلى اليمين واليسار وأحيانا تسترخي أو تتراجع إلى الوراء كالمنهوكة القوى، تتكلم بنفس العصبية التي تتحرك بها.

ولكن الوقت لا يسمح لي بإعطاء ملاحظات أكثر عنها...

إذ أنها تعلم بأسئلتها المحرجة وسرعة نفاقها كيف تسترعي الانتباه... وفجأة أجدني مندفعا في حديث حيوي مفيد.

مرت ساعة هكذا وربما أكثر عندما لاحظت طيفا يطل من الصالون، شخص ما يدخل وكأنه يخاف أن يزعج الموجودين إنه والد أوديت. وقال الرجل عندما حاولت أن أقف له:

- أرجوك... أرجوك اجلس أيها الكابتن، ثم تقدم وهو يصافحني بحرارة، ثم انحنى وطبع قبلة على جبين ابنته... وأخذ

يتحدث معي في شتى المواضيع عن الثكنة وعن قائدي، وبدا لي أنه يعرف أمورنا الشخصية منذ سنوات عديدة.

سأبقى أنا الآخر خمس عشرة دقيقة ثم أستأذن في الانصراف دون أن أسيء إلى أحد... وإذا بالخادم يقرع الباب ويتقدم من أديت ثم يهمس في أذنها بكلمات لم تجعلها تتمالك نفسها فصرخت فجأة:

لينتظر... أو ليذهب ويدعني أعيش في سلام... ليذهب، لست في حاجة إليه.

سبَّب لنا هذا الانفعال المفاجئ انزعاجا ظاهرا، رحت ألوم نفسي بعده على تأخري إلى مثل هذا الوقت... ثم تطلعت إليَّ تخاطبني بعصبية:

- لا، أرجوك أن تبقى، إن هذا ليس شيئا هاما.

وقال الأب الذي كان من الواضح أنه يفهم الثورة النفسية التي تعاني منها ابنته وتقدم منها محاولا أن يهدئ من روعها:

- ماذا بك يا أديت... هدئي من روعك يا حبيبتي.

وعادت فجأة إلى نفسها تفكر ثم تعتذر عن تصرفها غير اللائق أمام الحضور وخاصة بالنسبة لوجودي أنا في ذلك الوقت بينهم...

- اعذروني... كان بإمكان جوزيف الخادم أن ينتظر دون أن

يدخل هكذا فجأة...

ليس هناك سوى هذا الجلاد الذي يزورني كل يوم... إنه المدلك الذي يرغمني على ممارسة تمارينه اللعينة التي يسميها علاجاً طبيعياً.

ثم تطلعت إلى والدها تتفحصه بتحد كأنها تعتبره المسئول الأول عن كل ما يحدث لها من متاعب وما تعانيه من قسوة.

وقال الرجل لابنته:

- هدئي من روعك يا بنيتي:

هل تظنين أن الدكتور كوندور..

لم يكمل الرجل عبارته بل توقف فجأة، إذ ارتسمت على شفاه الابنة ابتسامة صفراء تهزها بعصبية واختلجت أرنبة أنفها هكذا ارتجفت شفتاها ذلك المساء، لذلك شككت بحالة هستيرية ثانية، وإذا بها فجأة تتورد وتتمتم:

- حسنا، حسنا، سأذهب وإن لم يكن في ذلك فائدة ترجى، سامحني أيها الكابتن، آمل ألا تقطع زيارتك لنا.

انحنيت محييا لها وهممت بالانسحاب ثم إذ بها تقول:

- لا، ابق مع والدي بينما أحاول أنا السير قليلا مع ذلك المدلك.

لفظت هذه الكلمات وكأنها تهديد حاسم، ثم تناولت جرسا صغيرا من البرونز كان فوق الطاولة وهزته بعنف وإذا بالخادم يطل من الباب.

وطلبت إليه أديت قائلة:

- ساعدني... أرجوك.

ثم طرحت الفرر الذي يغطي رجليها وانحنت أيلونا تهمس شيئا في أذنها فتجيبها بكلمة مقتضبة:

- ليرفعني جوزيف، وسأذهب بنفسي.

إن ما حدث فيما بعد كان رهيبا انحنى الخادم يرفعها واضعا يديه تحت ذراعها وما أن وقفت حتى تطلعت إلينا تحدجنا بنظرة مقاتل...

ثم تناولت عكازيها وانطلقت تدق بهما بلاط الممر، كانت تود فيما يبدو أن تنتقم منا جميعا..

أن تؤلمنا وتجعلنا نحس بما تعانيه هي من الآلام المبرحة الجسدية منها والنفسية، كأنها تود أن ترمينا نحن الحاضرين امامها من ذوي الشأن بسهامها المميتة القاتلة وتلصق بنا ما استطاعت من التهم، شعرت أمام هذا التحدي الخطير - والذي يفوق كل ما حدث أولاً بألف مرة - إلى أي درجة تتألم من إهمادها.

أخيرا كأن هذا قد استمر الدهر كله، ما أن خطت بضع خطوات نحو الباب حتى بدأ جسدها النحيل يتمايل يمينا ويسارا.

لم أكن أملك الشجاعة الكافية لأتطلع إليها ولو دقيقة واحدة إذ أن الضجة القاسية وصرير آلتها ثم لهاثها المتقطع كانت تحز في نفسي وأحس بأن قلبي يكاد ينفطر.

لقد تركت الغرفة وأنا مازلت أسترق السمع، أتتبع صوت خطواتها المريضة، حابس الأنفاس حتى اختفى الضجيج وتبدو عندما سمعت صوت الباب الخارجي يقفل وراءها.

عندئذ فقط تجرأت أن أرفع ناظري، لقد ترك والدها مكانه ووقف في النافذة يتطلع مشتت الإرادة مكفهر الوجه...

ثم انحدر وراء الستار الشفاف حيث لم يعد باستطاعتي سوى مشاهدة خياله يرتجف.

لقد هزه هذا الحادث وهو الذي يشاهد كل يوم الآلام التي تعاني منها ابنته.

وقال الرجل بلهجة منكسرة حزينة:

- أرجوك يا سيدي...

لا تتضايق من أقوالها المفاجئة...

ولكن لا أظن بوسعك أن تتخيل ما عانته طيلة هذه

السنين... اختبارات مستمرة... والنتائج بطيئة...

إنني أفهم عصبيتها ولكن ما العمل؟ علينا أن نجرب كل شيء... أن نحاول دائما فهو واجبي واستمر الرجل يقول:

- لو تعرف كيف كانت في الماضي... كيف كانت تركض فوق السلالم... والغرف... وفي كل مكان، حتى صرنا نتوقع أن تسقط يوما.. كانت تعبر فوق جوادها الصغير حتى لم يكن باستطاعة أحد أن يتبعها، كانت رشيقة، خفيفة، تشتعل حماسا... تقوم بكل حركة بخفة.

تزرع الخوف في نفوسنا أنا وأمها... كنا نحس بأنها ستطير، مستعملة ذراعيها كالأجنحة... وفعلا هذا ما حصل لها وحدها.

وانحنى رأس الكهل أكثر فأكثر تحت الطاولة، تعبث يده بالأواني المنتشرة فوقها...

ويأخذ من بينها لاقطة السكر ويرسم بها أشياء مبهمة خيالية... إنه خجل لا يستطيع أن يتطلع إليَّ...

وبالرغم من ذلك قال:

- بإمكاننا أن نخفف عنها ونقوم بتسليتها... إنها تسر لأدنى واقل الأشياء كالأطفال تماما، إنها تضحك من أشياء تافهة بسيطة لا معنى لها وتتحمس لأية زيارة كانت.

لكم وددت أن تراها عندما تسلمت الأزهار منك، سُرت بها

جدا وانمحى من ذاكرتها كل أثر للإهانة التي سببتها لها، وسوف لا ترتاب أيضا من رهافة إحساساتها ونعومة أفكارها، تحس كل شيء أقوى منها...

إني أعرف ذلك، فهي تأسف لما حدث منذ دقائق...

ولكن كيف يمكنها أن تسيطر على نفسها عندما تعلم أن الشفاء يسير ببطء؟ كيف تهدأ وتسكت عندما تعلم أنها تتلقى الضربات دون أن تستطيع الدفاع عن نفسها وهي لم تسيء إلى أي إنسان كان؟

واستمرت يده المرتجفة ترسم الخطوط الرهيبة... وإنه استيقظ فجأة ليشاهد أمامه رجلا غريبا لأول مرة...

وإذا بصوته يتبدل ويصبح ناعما رقيقا ويستمر في اعتذاراته المتكررة:

سامحني يا ابني. بأي حق أجرؤ على إزعاجك بأموري وهمومي، هذا لأنه قد أتي عفويا.

أردت أن أفسر لك. لا أريدك أن تظن بها سوءا.

لست أدري أين أجد الشجاعة وأقاطع حديث الكهل... وفجأة مشيت...

لم أقل شيئا بل اكتفيت بأن أخذت يده النحيلة وشددت عليها بين يدي...

وتطلع إليَّ الرجل منهدشا من وراء نظارتيه، نظرات مريبة تحاول الالتقاء بنظراتي... كنت أخافه أن يتكلم... ولكنه لم يقل شيئا ولا كلمة واحدة بل اتسعت حدقتا عينيه وكأنها تفيض وشعرت أنا بتأثر... لم أعهده من قبل فانحنيت وودعته وانصرفت.





كـان فـيلقنا ـ فـرقـتنا ـ يقـوم بتـمـارينه صـباح كل يوم، وكنت لا تسـمع سوى صـوت حوافر الخيول التي تنطلق بسرعة وهـي تثير الأتربة والغبار من حولنا...

وكنت وأنا أسابق الريح بفرسي أتمنى أن أزيد من سرعتي وأذهب إلى آخر العالم... ثم ألتفت من آن إلى آخر، مزهوا بأنني سبب هذه الفرحة الكبرى التي عليها الجنود... أتفقد مرافقي، لقد انمحى كل أثر للتعب عن سيمائهم...

وعندما عرفوا أنني أتطلع إليهم اعتدلوا في سروجهم وابتسموا بشجاعة وغبطة.

وها أنا أصرخ فيهم من جديد آمرا:

فوجئ الجنود بهذا الأمر وأمسكوا بأعنة جيادهم ليوقفوها، ثم تطلعوا إليَّ جميعا يستوضحون الأمر...

إذ أننا كنا نسير في الحقول دون توقف حتى وصلنا إلى أرض التمارين ولكنني أحسست بشيء ما يشد بعنان الجواد ويوقعه، تذكرت فجأة شيئا إذ لاحظت في الجهة الشمالية وعند آخر الأفق المربع الأبيض... جدران قصر وأشجار حديقة البرج المستطيل الشكل، ثم تملكتني فكرة غريبة مدهشة لربما كان هناك الآن شخص يراقبك... شخص ما أهنته لشغفك بالرقص... وها أنت الآن تعاود الكرة بركوبك الخيل...

شخص ما مقعد. مشلول الأطراف موثقها. يتألم لمشاهدتك تطير كالعصفور... وخجلت من هذا...

ثم تركت رجالي خائبين يكملون سيرهم على مهل وهم عبثا ينتظرون مني أن أحثهم على الإسراع من جديد، حقا وفي نفس

البرهة انتابني شعور بالإزعاج... تبين لي كم هي مؤلمة ومبهمة للأفكار أن تحرم من تسلية ممنوعة عن الآخرين... مسألة تافهة لا معنى لها...

بينما نحن نلهو، ونعبث فهناك رجال يتعذبون ويلفظون انفاسهم في أسرَّتهم... إن التعاسة تقيم في ملايين المنازل.

هناك أناس يتألمون من الجوع والمرض بينما آخرون يلهون ويلعبون... إننا إذا أردنا أن نفكر بكل ما ينتاب العالم من بؤس وما فيه من شقاء لفقدنا لذة النوم وفارقتنا الابتسامة إلى الأبد، ولكن ليس الشقاء الذي تتصوره هو الذي يزعجك ويهددك.

إنما هو البؤس الذي تراه بأم عينك وتحسه، وتتابعت الأفكار والذكريات في خاطري.. ثم تنبهت وأنا أصل أمام القصر.. ارتجف وقلت في نفسي:

عليك أن تتخلص من عاطفتك هذه...

ثم قلت للجنود:

- إلى الركوب... إلى الأمام...

كنت حتى ذلك الوقت أعيش في حلقة مغلقة... ضيق الآفاق، محدودها، لم أهتم إلا بما يشغل أصدقائي، ثم لم يسبق لي أن انحزت إلى أية جهة مهما كانت...

كما أن صلاتي بعائلتي كانت على ما يرام...

ومهنتي لا بأس بها...

ولكن هذا الوسواس الذي ظهر في حياتي كان له أثر كبير، أثر مفرح وسعيد، وفجأة يعاودني شعور غريب يقلقني، فليس هناك ما يثير داخليا ولا حتى خارجيا.

ولكن نظرة الغضب من تلك الفتاة والتي كنت أقرأ فيها قوة ألم هائل جعلت شيئا ينفجر في داخلي، وشعرت بحرارة تنتابني، فتسبب تلك الحمى الغريبة التي لم أكن أعيها كما لا يعي المريض أسباب مرضه...

عندئذ عرفت أنني خرجت من تلك الحلقة القاسية حيث أمضيت فترة لا بأس بها من الحياة الهادئة وها أنا اليوم أدخل منطقة جديدة، مثيرة ومقلقة، في آن واحد، ككل شيء جديد.

رأيت أمامي هوة سحيقة تنفتح، يشدني إليها شعور لقياس عمقها، وفي نفس الوقت كان لدي إحساس ولربما غريزة تنبهني من التجربة والانزلاق أو الرضوخ هكذا:

هذا يكفي. لقد تسامحت الفتاة وانتهت هذه القضية بالنسبة لك.

يقول الصوت الآخر:

عد إلى هناك وتخلص من التردد الذي يسيطر عليك.

وتعاود الأولى:

- تنبه ولا تتداخل في شيء، إنك لازلت شابا بسيطا ولست مخلوقا لمثل هذه الأمور غير الطبيعية لربما قمت بأعمال تافهة اكثر خطورة من الأولى.

لم يكن لي أن أختار بين هذه أو تلك، إذ أنني وبعد ثلاثة ايام وجدت في مكتبي دعوة من السيد كيكسفالفا إلى العشاء معه يوم الأحد المقبل.

وأعترف وأقول إن هذه الزيارة جعلتني فخورا جدا... أزهو بنفسي، هكذا عرفت أنهم لم ينسوني في تلك الحفلة الهامة... وبادرت بالذهاب ولم أندم هذه المرة على ذهابي.

لقد كانت أمسية رائعة للغاية، إذ كنت أشعر بأنني ألقى عناية خاصة عن سائر المدعوين...

وبعد تناول الطعام جلس المدعوون يتناولون لعب الورق، بينما انا جلست مع الفتاتين ولست أدري لم كنت أراهما جميلتين هذا المساء ربما كان لمزاجي المعتدل في تلك الأمسية...

لم تكن أديت شاحبة صفراء، مريضة، كما بدت من قبل... ربما كانت تضع بعض المساحيق على وجهها، وكانت ترتدي ثوبا احمر اللون رائعا دون أي شيء تغطي به ساقيها.

اما أيلونا فقد بدت لي أجمل مما عرفتها... فكنت أجد نفسي مدفوعا أن أمر بنظري عليها كلما مرت أمامي...

وبينما كنت منهمكا في الحديث مع الفتاتين يسيطر علينا هذا الجو الهادئ الرائع أحسست بأن هناك أنظارا مسلطة عليَّ تراقبني... تأتيني من هناك نظرة حارة سعيدة...

كانت نظرات الأب وهي تعبر عن سروره للحالة النفسية الرائعة التي كانت عليها أديت في ذلك المساء...

واستمر الحال هكذا طيلة الليل دون أن يفكر أحد من المدعوين في الانصراف..

حتى قمت أنا أستأذن وضغطت أديت على يدي وهي ترجوني ألا أبخل بزياراتي عليهم ووعدتهم بذلك وانصرفت.

ولم أنم تلك الليلة من جراء التفكير في تلك الكلمات التي وجهها السيد كيكسفالفا من أنني جلبت السرور له ولابنته بتلك الزيارة وألح هو أيضا في تكرارها.. معللا ذلك بأنني أصبحت صديقا لجميع أفراد العائلة...

وهكذا كنت أمضي أوقات المساء دائما عند تلك العائلة طيلة أسابيع عديدة...

ثم تحولت هذه الزيارات إلى عادة لا خطر فيها مطلقا... كم هو رائع بالنسبة لي أن أجد منزلا كهذا آوي إليه من البرد القارس وارتياد تلك المقاهي المزعجة...

كنتُ دائما ِعندما تنتهي خدمتي حوالي الرابعة والخامسة

أذهب تلقائيا إلى منزل كيكسفالفا، وما أن أطرق الباب حتى يفتح لي الخادم الباب ويتطلع إليَّ مسرورا.

كنت أجدني أجلس كل يوم إلى فتاتين، كان القرب من فتاة مقعدة هو منتهى سعادتي وأنا أتطلع إلى ذلك الفم الصغير تلطفه ابتسامة ما أو تهزها رجفة عارمة، يسبب لي فرحا كبيرا... أكثر ما تسببه أي مغامرة مثيرة...

وبفضل هذه الأمور اكتشفت كم تعلمت من أشياء طيلة هذه الأيام وكم من مناطق تكثر فيها الإحساسات الطيبة، كنت أجهلها.

دهشت كثيرا عندما اكتشفت أن لي شجاعة الاحتمال والصبر، فالتفهم الأول لأمر ما يجلب تفهما لأمر آخر...

ثم إن الذي يستطيع الصمود والتغلب على أول ألم يحل به يمكنه مجابهة ما يؤلمه فيما بعد أمام الثورات، بل العكس، فكلما كانت غير عادلة وغير منتظرة كلما أثارتني أكثر فأكثر...

ورويدا رويدا بدأت أتفهم لماذا كانت زياراتي إلى البيت تسر الأب وابنته...

إن مرضا مزمنا لا يتعب صاحبه فقط، بل يجهد ذلك المشفق، إن الشعور القوي لا يسعه أن يستمر حتى اللانهاية...

فلاشك أن الرجل وابنته كانا يتألمان جدا ولكنهما قانعان

بالمصيبة.. يعرفان كيف يتحملانها. يتقبلانها كأي أمر آخر وينتظران وأبصارهما شاردة أن تحل نهاية هذه الحالة التي تعاني منها أديت...

إنهما لا يخافان مثلي عندما ينفجران غضبا. وبما أنني كنت الذي يسببان له كل مرة هزة جديدة، كنت أيضا الوحيد الذي تخجل منه المريضة أمامه عندما تفقد برودة أعصابها...

إذ أنني عندما تثور أوجه إليها إنذارا بسيطا وأقول:

- مهلا يا أديت... مهلا... مهلا.

وكانت تلك الكلمات تكفي لكي تهدئ من روعها بالفعل... وتتورد وجنتاها خجلا ولولا شللها لولت الأدبار من أمام نظراتي.

لم أستأذنها أبدا إذا ما طلبت بصوت فيه صيغة الترجي الذي يقلقني:

- ولكنك ستعود غدا، أليس كذلك؟ ألم تغضب للحوادث الصغيرة التي وقعت اليوم؟

في هذه الأثناء فقط عرفت مدى القوة التي تتركها في هذه الشفقة.

ولكن زملائي في الثكنة كانوا لا يعرفون أن الدافع لذهابي إلى هناك هو هذا النوع من الشفقة...

وعبثا حاولت أن أشرح لهم ذلك، ولكن ماذا تفيد هذه

الشروح عندما يفقد الإنسان توازنه الداخلي، فكان لهزء زملائي بي تأثيره، هل حقا بمجرد الشفقة والاستساغة تذهب كل يوم إلى منزل هؤلاء القوم الأغنياء؟ كنت أسأل نفسي أنا أيضا دائما هذا السؤال...

أليس في تصرفاتي نوع من العبث والسرور الداخلي الخاص؟ على كل الأحوال يجب أن أوضح ذلك...

ولذلك يجب عليَّ أن أقلل من زياراتي لهذه العائلة في المستقبل... غدا لن أذهب.

ونفذت في الغد ما عزمته بالأمس... وقلت: حالا تنتهي الخدمة وأذهب إلى المقهى وأجلس مع أصدقائي نقرأ الصحف ونلعب بالورق..

كنت ألعب خائفا إذ أنني أدركت أن أديت الآن بانتظار وصولي إليها لشرب الشاي معها... وتصادف أنه عندما كنت اتاخر عن وصولي أنها كانت تسألني:

- ماذا حدث اليوم... لقد تأخرت عن موعدك أكثر من ربع ساعة؟

تراهم الآن يتطلعون في ساعاتهم بقلق كما أتطلع إليها أنا الآن... يجب أن أتصل بهم تليفونيا... بأنني لن أستطيع الحضور إليهم اليوم؟ أو أن أرسل رسالة مع مساعدي مثلا؟

واقترح أحد الأصدقاء أن نتنزه على شاطئ البحر... وبالفعل خرجنا، وإذا بي ألمح طيف امرأة بالقرب مني ونظرة منها تتفحصني... ونظرت إليها، أليست هي أيلونا؟

أين تراها ذاهبة وبسرعة هكذا؟

إنها ليست خطوات فتاة تتنزه، بل إنها خطوات متسابق في حلبة سباق.

واستأذنت من رفاقي وأسرعت وراءها:

- أيلونا... أيلونا...

وتوقفت دون أن تبدو مندهشة لسماع ندائي... أجل إنها رأتني وهي تمر...

وقلت لها بعد أن أدركتها:

- إنه لرائع أن ألقاك في المدينة... أين تريدين الذهاب؟

- إني عائدة إلى المنزل إنهم ينتظرونني الآن.

- هل لك في نزهة قبل العودة؟

- إنني في عجلة من أمري.

- حسنا، فلنتمهل خمس دقائق، أما إذا كنت تخافين القصاص فسأزودك بكلمة اعتذار... اتبعيني فقط.

- لا. قلت لك إنه يجب عليَّ العودة، فالسيارة تنتظرني هناك.

وبالفعل كانت هناك سيارة تنتظر في الميدان.

- ولكن هل تسمحين أن أرافقك إلى السيارة؟

أجابت شاردة بهموم:

- أجل...

- ولكن لماذا لم تحضر بعد ظهر اليوم؟

ترددت قبل أن أجيب ولكني قلت:

- لقد كان عندي بعض التدريبات.

ونظرت إليها فوجدتها تعض قفازيها وهي تتأرجح بعصبية ثم قالت بعجلة:

- إذن هل ننتظرك على العشاء؟

وقلت في نفسي يجب أن أذهب:

- نعم... نعم بكل سرور...

ولكن ليس هذا المساء... لدي اجتماع لا أستطيع التخلف عنه.

تطلعت إليَّ الفتاة بمنتهى القسوة ولم تجب بشيء.

وفتح السائق باب السيارة لها وأغلقت هي بابها بعد أن دخلت فيها بعنف ثم قالت من وراء الزجاج:

- وغدا... سنراك أليس كذلك؟

وقلت بمنتهى البرود بعد أن نظرت إليها ملياً:

- غدا... أجل بالتأكيد.

وانصرفت الفتاة وتركتني في حيرة من أمري.





وأقلعت السيارة ووجدتني أقف متضايقا من الطريقة التي كانت تحدثني بها أيلونا.. إنني لاحظت نوعا من العصبية في كلامها نحوي، أم تراها غضبت كأنها تخاف أن يشاهدها أحد بصحبتي، ثم هذا الذهاب المفاجئ، إنه كان عليَّ أن أحمِّلها تحياتي إلى عمها وإلى أديت...

إن هؤلاء الناس لم يسيئوا إلي في شيء... ولكنني من جهة ثانية شعرت بارتياح عميق لأنني لم أخضع، لا يمكنهم الآن أن يظنوا بأنني سأفرض نفسي فرضا عليهم وعلى حياتهم.

ومهما يكن من أمر الاتفاق بيني وبين أيلونا على أن أزورهم غدا، برغم هذا سوف أخبرهم تليفونيا بميعاد قدومي، يجب دائما أن أراعي أصول الزيارة حتى أكون دائما في جانب الحذر لأن ذلك أوثق دائما.

كنت أقصد بذلك أن لا أحل في العائلة فجأة، ومن الآن فصاعدا سأتصرف هكذا حتى أتأكد دائما من أن زيارتي لهم شيء مرغوب به، وتوجهت حسب الموعد ووجدت الخادم أمام الباب بانتظاري.

وما آن دخلت حتى بادرني قائلا:

إن الآنسة تتنزه في الشرفة وترجو سيدي أن يلحق بها إلى هناك.

وسكت قليلا وهو يرى أثر كلامه على نفسي ثم أردف قائلا:

- أظن أنه لم يسبق لسيادتكم أن صعدتم إلى تلك النافذة، ولكنك ستعجب يا سيدي من المنظر الذي ستراه من فوق.

وكان الرجل محقا في كلامه، إذ أنه لم يسبق لي أن صعدت إلى ذلك البرج من قبل رغم أن بناءه قد أثارني مرات عديدة.

وقد قص علي الأب من قبل... كيف أن أديت كانت تتسلق هذا البرج مما كان يثير مخاوفهم ومن أجل ذلك اختارت الفتاة تلك الزاوية مكانا تخلد إليه وترتاح...

كم من الأحيان شاهدها والدها تتطلع إلى ذلك المكان شاردة الأبصار حزينة.

وأراد الأب أن يقدم لابنته مفاجأة سارة فاستفاد من وجودها في النمسا للعلاج..

وأخذ يعيد بناء البرج لابنته ويبني في أعاليه شرفة جديدة تستريح فيها أديت وقت أن تشاء.

وعندما عادت في أواخر الخريف، وقد تحسنت صحتها بعض الشيء جهز والدها الشرفة بمصعد خاص بها مما سمح للفتاة أن تصعد إلى هنا ساعة تشاء.

وهكذا وجدت أديت طفولتها تعود إليها دون علم مسبق منها.

وقادني الخادم إلى المصعد وكان بإمكاني أن أرى من أعلى حتى حدود الأفق تلمع في الشمال، ثم شعرت بتلك الوداعة البسيطة التي تكونها هذه المنطقة المنفردة.

ولكن لم يكن باستطاعتي البقاء طويلا كي أتأمل هذا المشهد الرائع، إذ أنه كان يتعين عليَّ أن أتقدم من أديت محييا على

الرغم من أنني لم أرها في بادئ الأمر.

إذ أن الكرسي الخيزران الذي كانت تجلس فوقه كان بالاتجاه العكسي ويحجب وجه الفتاة عن القادم، وتم ذلك عندما شاهدت الطاولة الصغيرة بقربها وفوقها الكتب، فعرفت حينذاك أنها هناك...

ولربما أزعجها وقوفي المفاجئ خلفها، فرأيت أن من الأفضل السير بجانب الحائط حتى أتقدم وأقف أمامها وجها لوجه.

وبينما كنت أسير على مهل لاحظت أنها نائمة، تلتف بفراء وتتكئ فوق وسادة ناعمة بيضاء.

وتوقفت لا إراديا... ورحت أتأملها وكأنها لوحة فنية، إذ أنه لم تتح حتى الآن رؤية ملامحها عن قرب كما أشاهدها الآن، هذه هي المرة الأولى وهنا بالذات ما دامت عيناها مغمضتين أتمكن من رؤية ذلك القناع المستدير والذي لم يتم تكوينه بعد.

أعني وجهها حيث الملامح الصبيانية تجمع إلى أشد النساء رغبة، شفاه شبه مفتوحة، تتنفس ببطء، واقتربت على مهل وأخذتني رغبة مجنونة بأن أمر بيدي فوق ذراعيها أو أنحني فوقها وألمس شفتيها.

عندئذ تستيقظ وتجدني منتصبا أمامها أغمرها بنظراتي، يغمرني شعور من الحنان المقرون بالشفقة...

إنه شيء رائع أن تراقب المرضى وهم في حالة النوم، عندما تتركهم كل حالات الخوف وينسون أمراضهم تماما لترتسم على شفاههم ابتسامات خفيفة تغط كالفراشات الجميلة فوق الزهور... ابتسامة ليست ملكا لهم، إذ أنها تتركهم ما أن يستيقظوا من نومهم...

وكان الذي يثيرني أكثر هو يداها المعقودتان فوق ركبتيها تمسكان بالفرو، اليدين الناعمتين، ولكنها تعجز أن تمسك شيئا ولو صغيرا فقلت في نفسي وقد ازداد تأثري، كيف يمكننا أن نصمد في وجه الألم وسلاحنا ضعيف هكذا.

ثم اعتراني خجل وأنا أفكر بيدي القويتين يغطيهما العضل وتنفر منهما الدماء قاسيتين، بإمكانهما تحطيم كل شيء، تروضان حصانا بضربة واحدة وتحين مني التفاتة لم أقصدها إلى الغطاء فوق ركبتيها الهزيلتين... وساقيها المشدودتين بقوة بين الآلات الحديدية والجلدية..

ومن جديد تهزني هذه الآلة الكريهة، شعور بالنقمة والاشمئزاز، حتى هزني من رأسي إلى أخمص قدمي فأصدمت رحلاي ببعض ضجة خفيفة تسربت إلى أحلام الفتاة، لم تفتح عينيها بل رأيت يديها تتحركان ببطء، ترتعشان.

فكأن أصابعها تستيقظ متثائبة، وترتفع بحاجبيها، ثم تفتح عينيها تتطلع بدهشة من رؤياي واقفا أمامها، وتلمحني وتثبت

ناظريها فوقي ورعشة خفيفة، وها هي تستيقظ تماما وتتعرف إلي ثم تحمر وجنتاها وتتورد بلون أرجواني مثير.

وقالت وكأنني أخذتها على غرة وهي عارية:

- كم ذلك مزعجا.

ثم تشد الغطاء فوقها.

وقلت لها:

- فعلا هذا إزعاج أأسف له.

وفجأة ابتدأت أرنبة أنفها ترتعش ثم تطلعت إلي بتحد وقالت:

- لماذا لم توقظني في الحال؟

لا يليق بك أن تراقب الناس نياما، ألا تعرف كم يكون الإنسان غريبا عن نفسه حين ينام.

وحاولت الخروج من هذا المأزق فأجبت مازحا:

- من المستحسن أن نبدو غرباء ونحن نيام بدلا أن يرفقنا ذلك ونحن مستيقظون.

وها هي تقف الآن متكئة على جانبي المقعد، ويزداد جبينها عبوسا وشفتاها ارتجافا وهي تقول:

- لماذا لم تحضر أمس؟

قالت ذلك بمنتهى السرعة ولم تمهلني إعطاء الجواب لتضيف أيضا:

- علينا أن نؤمن أن شيئاً ما هاماً حال دون مجيئك، إنما هذا لا يمنعك من أن تتصل بنا تليفونيا لتعتذر.

يا لي من أحمق لماذا لم أفكر في هذا السؤال من قبل واحاول أن أجهز الرد المناسب له وشرعت أبحث عن رد مناسب واخيرا قلت:

فاجأنا القائد العام للتفتيش ولم أستطع الوصول إلى التليفون فمعذرة.

ولم تتركني نظراتها القاسية ولا دقيقة واحدة، تزداد شكوكا وبلبلة عندما أتكلم.

فكلما اعتذرت كلما كبر الجرم واستفحل، لذلك وجدت أن السكوت هو الحل الأفضل وقالت أخيرا بصوت مشبع بالبرودة:

- آه، وكيف انتهت قصة المفتش المثيرة؟

وشعرت بأن أمري سينكشف أمامها إذ وجدتها تضرب الطاولة التي أمامها بقفازها الأبيض وكأنها تحاول أن تتخلص من احمرار وجنتيها مرة ومرتين ثم تحدجني بنظرات قاسية والقول بشراسة:

- كفى الآن كذبا ورياء، ليس هناك كلمة واحدة صحيحة

مما تقول كيف تجرؤ أن تخبرني حماقات كهذه؟

ورمت بقفازها في الهواء... ثم تناولته مرة أخرى وأخذت تضرب به المائدة وقالت:

- ليس هناك أثر للحقيقة فيما قلته إذ رآك سائقنا وأنت تجلس في المقهى وتلعب الورق مع زملائك.

أبت الكلمات أن تخرج من فمي واستمرت «أديت» في هجومها.

- ومع ذلك لماذا تراني أزعج نفسي؟

يجب عليَّ أن ألاعبك بنفس السلاح الذي تستعمله معي، إنك تكذب عليَّ ويجب عليَّ أن أكذب عليك أنا الأخرى، أنا لا أخاف أن أقول لك ذلك، ولكني سأقص عليك الحقيقة..

إن سائقي لم يرك بل أنا التي أرسلته إلى المدينة ليعرف أخبارك، ظننت أنك كنت مريضا أو ربما ألم بك ألم، كدت أجن عندما لم تحضر وعندما لم تتصل بي تليفونيا وعندما عاد السائق وقال إنك سليم معافى وليس بك أي سوء أرسلت أيلونا إلى المدينة للتأكد من ذلك..

إنني أريد أن أسألك سؤالا:

لماذا تتصرف معي هكذا.. إنني لا أخجل أن أقول ذلك، لماذا؟

كنت على أهبة الاستعداد للإجابة ولكني تراجعت في آخر لحظة وعندما رأت ذلك مني قالت وهي تشير بأصابعها لي:

- لا أرغب باختلافات جديدة الآن، فمنذ الصباح وأنا أسمع عبارات الإطراء والمديح الكاذبة مثل..

كم تحسنت خطواتك اليوم، إنك تبدين فرحة هذا الصباح، دائما كذب ورياء ونفاق، دائما كلمات التخدير الزائفة من الصباح وحتى المساء.

ليس هناك من يشعر بأنني أتألم من النفاق والكذب، حتى أنت الذي اعتقدت أنك غيرهم كذبت أنت الآخر، لماذا لم تحضر وتقول لي بكل بساطة: معذرة لم أشأ أن أحضر البارحة.

ماذا لو اتصلت بي تليفونيا واعتذرت عن المجيء... إلا أنني الاحظ ارتباكك عندما آخذ عكازي ثم تندفع في الحديث لكي لا الاحظ ارتباكك؟

ولكنني لا أعرف بعمق كل آرائك وما يدور في خلدك.. إنني ا مرف أنك تتنفس الصعداء عندما يغلق الباب خلفي فتتخلص ..ي لتتركني جثة هامدة أعلم كيف؟

تتأوه كبرياء قد ظلم، ثم ذلك القيد الذي يعتريك لكونك اسمعت ساعتين من وقتك الثمين تخفف آلام مريض يائس ولكنني لا اريدك تظن نفسك مجبرا على شيء من الرأفة تجاهي إنني لا استطيع المزيد من كذبك.. وكل تصرفاتك تدمي قلبي.

نطقت أديت الكلمة الأخيرة صارخة، محتجة، يتطاير الشرر من عينيها وتعلو وجهها سحابة من الكآبة والشحوب، وفجأة هدأت النوبة دفعة واحدة، وأحنت رأسها منهوكة من المجهود الذي بذلته في إلقاء محاضرتها الإنسانية الرائعة واستمعت إليها أنا كتلميذ يتلقى محاضرة من أستاذ ماهر في اختيار العبارات التي تحز في النفس وتثير شجونها... ودموعها...

ونظرت إليَّ وقالت:

- لقد أبديت لك وجهة نظري في المسألة كلها حتى لا أثقل عليك، والآن فلنحاول أن نبدأ من جديد لا رياء، لا نفاق، لا كذب، بل حقيقة لا تشوبها شائبة.

لحظت أديت تأثري البالغ من كلامها فقالت:

- لماذا ترتعش ماذا حدث؟

هل أثر فيك ما قلته، كيف يتمكن حديثي الثرثار من إثارتك، إنك فعلا لرجل غريب.

وسمعنا وراءنا صوت المصعد ثم صوت الباب يفتح ويخرج منه والدها، ويتقدم منا ويحييني وتجاذبنا أطراف الحديث... ثم قال لابنته:

- أخاف أن يكون البرد شديدا عليك، هل تريدين أن ننزل؟

أجابت أديت:

- أجل يا والدي.

ونزلنا وعادت أديت إلى غرفتها ودخلت أنا ووالدها إلى المكتبة وقال الرجل:

- تفضل بالجلوس:

فشكرته وجلست وأنا أحاول أن أخمن الحديث الذي سوف نتناوله أنا وهذا الرجل، إنه مليونير وأنا بالنسبة إليه فقير، تراه ماذا يريد مني هو الآخر، وأخذ يتجاذب معي في مواضيع عامة ثم قال:

أود أن أشكرك، إنك تدخل السعادة على أديت، إنك لا تعرف قسوة أن ترى ابنتك الوحيدة وهي تزحف بقفص حديدي يلف ساقيها.. لقد سألت عشرات الأطباء وجميعهم يؤكدون لي أنها ستشفى ولكني أعلم أنهم يخدعونني ولكن واحدا منهم اسمه «دكتور كوندور» إنه أحسن الأطباء الذين عرفتهم..

إنه طموح ولا يعترف بالفشل ولذلك فإنه هو الذي يداوم على علاج ابنتي، ومهما فعلت له فلن أفيه حقه نظير ما يبذله من مجهود لقد كتبت له نصيبا من مالي في وصيتي لكي يبني به مستشفى، إنني أحس بأنه إذا كتب لأديت الشفاء فسيكون على يدي هذا الرجل وما أريده منك هو أنني أشعر في كثير من الأحيان بأنه لا يقول لي الحقيقة..

كل الحقيقة..

إنه يعدني دائما ويخفف عني. إن الفتاة في تحسن مستمر وإنها سوف تشفى تماما وكلما أطلب منه تحديد الوقت يقول لم يمر الوقت الكافي بعد.

إنني رجل كهل ويجب أن أعرف هل سأعيش حتى أرى ابنتي تشفى، أم إنني، إنني.

وانهار باكيا وأشاح بوجهه خارج عن نطاق رؤيتي حتى لا أرى دموعه ثم تنفس بعمق واستعاد نشاطه وأكمل حديثه قائلا:

- سامحني، لم أشأ أن أتحدث عن ذلك، ماذا أريد بالضبط؟ أجل إن الدكتور كوندور سيصل غدا من فيينا وأريدك أن تقابله وتسأله حقيقة الأمر.

تلك هي الخدمة التي أطلبها منك وإني أشكر لك حسن استماعك لي وأقدر مشاعرك.

وصافحني بحرارة وانصرفت.

وصلت صباح اليوم التالي إلى القصر واستقبلتني أيلونا بمفردها وقالت لي إن الدكتور وصل من فيينا وإنه الآن يقوم بإجراء الكشف على أوديت ومعها والدها...

وانفردت بأيلونا ساعتين ونحن نتناول أطراف الحديث حتى خرج علينا الدكتور ومعه كيكسفالفا، وأخذت في تفحص الطبيب العبقري الذي وصفه لي ولم أجد فيه صفة واحدة تؤهله بأن

يكون ذلك الطبيب الماهر، شاهدت رجلا مربوع القامة، أصلع، يضع فوق عينيه نظارة سميكة، ويرتدي سترة سوداء مهدلة.

قام الوالد بعملية التعارف وصافحني، ثم ذهبنا إلى غرفة الطعام وجلس الدكتور إلى المائدة دون استئذان مما يدل على أنه متعود على تناول الطعام في هذا المنزل، وابتدأ في تناول حسائه بشهية واضحة.

بعد أن فرغنا من الطعام عدنا إلى الصالون، حيث تنتظرنا القهوة، وارتمى فوق الكنبة المريحة المعدة خصيصا لأديت وأشعل سيجارة ونظر إلى الرجل وقال:

- حسنا هناك تحسن ملموس منذ الزيارة الأخيرة وهذا مما يسرنا إنما الذي لاحظته هو حالتها النفسية لقد بدأت تتغير نوعا ما.

وارتعش الوالد وسأل:

- تغيرت؟ ماذا تعني بذلك؟

- حسنا... تبدلت... هناك شيء ما لا يسير حسنا.

واستمر الكهل يقول:

- ما هو الذي لا يسير بانتظام يا دكتور؟

- هناك شيء ما لا أعرفه... لم أتوصل إليه إلى الآن... إنها كانت تقول لي مثلا وأنا أقوم بفحصها:

عبثا تحاول... إنه نفس الشيء... إنها كانت فيما مضى تنتظر أن أقول ملاحظاتي...

أما هذه المرة فقد كانت تبدي نوعا من عدم الاهتمام... أو فلنقل نوعا من اليأس... إنها تقاوم العلاج.

إن هذه المقاومة لا تسرني على الإطلاق، إنني أعترف بأن الفتاة مرهقة، غاضبة، أكثر من أي وقت مضى.

ولكن ثورة كهذه تعني هي الأخرى تمسكا بالحياة وقوة الإرادة الشخصية، قوة في أمل الشفاء والتخلص من المرض...

صدقني إننا لا نحب كما يظن الناس المرضى المطيعون، إن هؤلاء يؤخرون سير أعمال الطبيب ولا يساعدونه على شفائهم، إننا كأطباء نفضل أن نراهم يبدون مقاومة لأن في ذلك قوة فعالية أكثر مما في الأدوية التي نصفها لهم.

وأقول لك مرة أخرى إنني لم أقلق لهذا فإذا أردنا أن نجرب طريقة ثانية معها أو نصف لها علاجا آخر لوجدناها تبدي جهدا غريبا...

ومن يدري فقد تكون لنا فرصة في ذلك كي ندخل الحالات النفسية معنا، ولا أدري فعلا إذا كنت تفهم ما أقوله.

قال الرجل بشبه رنة حزن:

- تماما...

نظرت إلى الكهل فوجدته مازال لم يخرج عن صمته... كان يتطلع أمامه، شارد الذهن شعرت بأنه لم يفهم ما كان يقصده الدكتور، ولعله لم يكن يريد أن يفهم، إن ما كان يستحوذ على اهتمامه هو: هل ستشفى ابنته؟ وهل هذا قريب أم لا؟

واستمر الدكتور في كلامه قائلا:

- والآن كفانا ما قلت اليوم..! لقد أخبرتك ما اعتقدته.. أما الباقي فلا يتعدى كونه ثرثرة، حتى إذا حدث وبدت أن أديت مستاءة أكثر مما هي عليه الآن، فإياك التخوف سأصل إلى معرفة ذلك الشيء الذي لا يسير حسنا.

وما عليك إلا أن تمسك أعصابك وتبقى هادئا ويجب عليها أن تشعر بالاطمئنان والأمل في وجهك وإلا خسرنا كل شيء، والآن اسمح لي أن أبقى فترة أخرى حتى أدخن سيجارتي وانصرف.

- هل تنوي حقا أن تنصرف؟

وبقي الدكتور صامتا ثم قال:

- أجل يا عزيزي، هذا يكفي اليوم، لدي مريض آخر سأذهب لزيارته هذا المساء، إذ أن حالته خطيرة، وكما تراني لم أهدأ منذ السابعة صباحا إذ كنت طيلة اليوم في المستشفى.

كما أنني لا أريد أن أقطع خلوتك مع ضيفك ثم أشار إليَّ

وهو يبتسم.

ولكنني تذكـرت أنا الآخـر أن اليـوم هو مـوعـد خـدمـتي الأسـبـوعـي فـاعـتـذرت من عـدم الاسـتـمـرار في السـهـرة وقلت للطبيب:

- سوف نذهب معاً إذا سمحت لي.

ولمع بريق الأمل في وجـه الأب البـاهت، لقـد تذكـر الحـديث الذي دار بيننا اليوم والمهمة التي أوكلني بها.

وقال: إذن في هذه الحالة سوف أذهب إلى فراشي حالا.

وخـرجت أنا وهـو ووصلنا إلى البوابة الخارجية للقصـر دون أن نتـجـاذب أطراف الحـديث ثم قـال الطبـيب وهو يلتـفت إليّ جيدا:

- مسكين والدها. إنني أوبخ نفسي دائما على تصرفاتي معه وأتساءل إذا لم يكن البعض منها مزعجا كثيرا كي يسيء إليه ويحـرجه، لقد كنت أعلم أنه يود أن يستبقيني اليوم ليطرح عليّ للمرة الألف السؤال الذي يحيره.

نفس السؤال منذ بدأت علاج ابنته ولكنني لا أستطيع، إذ أن نهاري كان حافلا بالمتاعب.

كنا نجتاز الممر الخارجي المحاط بالأشجار الباسقة وأضاف الدكتور:

- ثم أن هناك وقتا لا أستطيع أن أتحمل فيه إلحاح أحد من الناس.. إن كل المرضى يريدون أن يعرفوا الحقيقة من فم طبيبهم، ولكن كل هذا ليس مهما بقدر أهاليهم الذين يحيلون حياتنا إلى جحيم بسبب تكرار أسئلتهم.

إنني لا أريد أن أصف هذا الأب بمثل هذه الصفة ولكن عندما يصبح ذلك روتينيا، فإنك تجد نفسك تفقد صبرك تلقائيا.

إنني قلق بشأن صحته هو، أكثر مما تصوره لك نفسك، ويسعدني أنه لا يعرف إلى أي مدى تدهورت صحته.

ارتجفت عند سماع ذلك، إذ أن الحالة ليست على ما يرام، وبطريقة بطيئة للغاية استطاع الطبيب أن يمدني بمعلومات كافية عن خطورة حال الأب وكان تأثيري بالغا فاضطررته أن يكمل شرحه وقلت له:

- عفوا يا دكتور:

إنك تدرك أن هذا يقلقني جدا، ثم إنني لم أشك في أن حالة الآنسة أديت سيئة جدا.

الآنسة أديت؟

وتطلع إليَّ الطبيب مندهشا... ثم تنبه إلى أنه كان يتكلم عن شخص آخر وقال:

- كيف ذلك؟

الآنسة أديت؟

إنني لم أتكلم كلمة واحدة بشأنها.

إنك لم تفهمني مطلقا... لا... لا...

إن حالة الآنسة أديت مستقرة تماما، لا تتقدم أبدا ويا للأسف إنها حالته هو..

إننى أعني الأب الذي يعذبني أكثر فأكثر ألم تلحظ كيف تغير طيلة هذه الأشهر الأخيرة. وكم أصبح مزاجه صعبا؟

- لا أستطيع أن أحكم على ذلك، فأنا لم أتشرف بمعرفته إلا منذ عدة أسابيع قليلة فقط.

- آه عفوا، إذا كنت كذلك فأنا أعرفه منذ سنوات خلت، لقد تخوفت اليوم وأنا أتطلع إلى عينيه ويديه...

ألم تر كيف هي هزيلة ضعيفة. ثم أن انفعاله مبالغ فيه إلى درجة كبيرة، إنها ليست أديت التي تسبب لي الوسواس، بل هو والدها نفسه ولذلك أخاف ألا يعمر طويلا.

اعتراني ذهول شديد بعد ما سمعته، لم أفكر بهذا مطلقا. لم أر إلى الآن أو حتى أشهد موت شخص قريب إليَّ.

ومن الصعب أن تحضرني فكرة الموت في الحال، لشخص

كنت معه البارحة وتحدثنا في أمور كثيرة أن يموت في الغد ويواري التراب، ولذلك أحسست بوخزة مؤلمة في قلبي، كنت أريد أن أقول شيئا:

- ولكن هذا مخيف جدا، إنه حقا مخيف، رجل مثله أنيق، طيب القلب متسامح، إذ أنه فعلا كان أول رجل عرفته ووجدت فيه كل تلك الصفات مجتمعة.

وحدث شيء مفاجئ...

إذ توقف الدكتور كوندور، وتطلع إليَّ محدقا ثم سألني مضطربا:

- رجل لطيف؟

ولطيف حقا، كيكسفالفا نفسه، أعذرني يا سيدي الكولونيل ولكن هل تتكلم بجدية.

وغاب عن بالي فحوى سؤاله وظننت أنني ارتكبت حماقة فقط... لذلك أجبت متلكئا:

- لا أستطيع أن أكلمك إلا بعد أن أحكم، إذ أن الرجل بدا لي في كل المناسبات مسامحا وممتازا، كما أنه في المعسكر الذي نقيم فيه لم نتعرف على شخص فيه كل تلك الصفات مجتمعة.

امتنعت عن الكلام إذ كان الطبيب يتفحصني بدقة لا متناهية، كان وجهه المستدير يلمع تحت ضوء القمر الساطع...

ولم أكن أرى من وراء نظارته سوى تلك النظرات الثاقبة المتفحصة ثم أخفض رأسه وتابع مسيرته وقال كأنما يحدث نفسه:

- إنك حقا، رجل غريب، أعذرني إنني لا أعني بذلك شيئا، ولكنه شيء غريب، كان من المفروض أن تعلم شيئا ولو يسيرا عن الرجل.

ووجدتني أجبت بحدة:

- لا، إنني لم أتكلم مطلقا مع أصدقائي عن كيكسفالفا.

وقال الطبيب:

إذا كنت تريد أن تعرف عنه الكثير فأنا رهن إشارتك.

- طبعا هذا ما أريده.

وأخرج ساعته من جيبه وتطلع إليها وقال:

- إنها الآن الحادية عشرة إلا ربعا، أمامنا ساعتين إذ أن قطاري لا يترك المحطة قبل الواحدة والعشرين دقيقة.

ولكنني لا أعتقد أن مثل هذه الأشياء تقال في الطريق، ربما تعرف مكانا هادئا يمكننا الجلوس فيه والتكلم بصراحة.

فكرت قليلا وقلت:

- بإمكاننا الذهاب إلى كازينو «تيرولين» هناك يمكننا أن نتحدث دون أن يزعجنا أحد.

- تماما... أظن أن هناك الكثير الذي سأقوله لك.

ورحنا نسرع الخطى وآلاف الأسئلة تجول بخاطري عن الأب الحزين.





كـان الكازينـو الذي قـصـدناه يتـمـتـع بتلك الشـهـرة الفـائقـة نظرا لصـغـر هذه البلدة ولكنني كنت أعتبره من ناحيتي سـوف يؤدي إلى الغرض الذي من أجله جلسنا للتناقش.

وانتحينا في زاوية هادئة بعيدين عن الضوضاء المنبعثة من بعض رواد المقهى، وأخذنا نتناول شرابنا الذي طلبه الدكتور كوندور وملأ كأسه ولاحظت من حركاته وتصرفاته أنه سوف يتكلم معي ولكنه سوف يحجب بعض الأشياء في حياة كيكسفالفا، ولذا فإنه يهيئ نفسه لمحاولة المداراة وأحسست أنه يعاني من شيء ما... وبعد أن شرب كأسه قال:

- من الأفضل أن نبدأ من البداية...

ولا تظن أن ذلك الرجل قد ظهر في بداية الأمر، لا يا عزيزي لم يكن قد ظهر بعد ذلك الأرستقراطي الذي يرتدي النظارات والأسموكنج صاحب كل تلك الأموال...

كما أنني لا أستطيع أن أطلق عليه أسماء الشرف التي تطلق عليه الآن... وإنما كان هناك رجل يعيش في كوخ ضيق، متقد النظرات طموحا يدعى «ليبولد كانيتز» أطلق عليه الناس اسم «لاميل كانيتز».

وكدت أعبر عن دهشتي من هذا الكلام وقمت واقفا محاولا أن أعترض على تلك اللهجة التي يتكلم بها صديق عن صديقه، ولكن الدكتور كوندور ظل هادئا وقال لي وهو يبتسم:

- دعني أستمر إلى النهاية وبعدها تستطيع أن تقول رأيك.

وسكت على مضض وتابع كوندور حديثه هادئا وقال:

- أجل كانيتز. ومر الوقت على فقره وتبرمه من حياته وساعده القدر بتدخل أحد من الوزراء المقربين في البلاط وأصبح كيكسفالفا الذي يعرفه أنا وأنت. لقد تغير المكان وتبدلت الأسماء وأصبح الشريف.

لقد كلفه ذلك كثيرا ولكن على كل حال لقد وصل إلى ما يريد.

ولو عادت بي الذاكرة إلى والد السيد كيكسفالفا كانيتز سابقا لوجدته رجلا غير شريف... كان صاحب كوخ عند الحدود لوقف عنده كل يوم العربات التي تقل الحدادين والنجارين المسافرين ويتناولون المشروبات الرخيصة والوجبات الرديئة.

وكم من المرات التي سكروا فيها ثم قاموا بتحطيم كل ما وقع في طريقهم من أثاثات وأوان. وفي إحدى هذه المعارك أصيب والد كانيتز ولقي مصرعه وآلت بالتالي التركة القذرة إلى السيد كيكسفالفا...

ولكن الحال لم يتغير في عهده عن عهد والده وظلت المعارك تدور ولكنه كان يحاول دائما أن يقف موقف المصلح الاجتماعي في هؤلاء لكي يحافظ على أساسه المتهالك...

كان يقف فيما بينهم.. يحاول تهدئتهم ووضع حد لنقاشهم وصراخهم وفي إحدى المرات دفعه أحد الحمالين دفعة قوية ألقت به إلى أحد الأركان وهو ينزف دما، وعرف أن ذلك المكان

لن يورثه إلا الموت كما لقي والده حتفه. فقرر الابتعاد عنه والسعي إلى عمل آخر، وكان له ما أراد، إذ أنه في السن التي كان فيها الأطفال يلعبون ويلهون كان هو مشغولا بعمليات أكبر في فن البيع والشراء...

كان يعرف سعر كل شيء ومن أين يمكنه شراؤه، يعرف كيف يساوم في الأسعار، وكم يجب أن يربح، كي لا تتصرف عنه الزبائن، وبالإضافة إلى ذلك... كان يجد وقتا ليتعلم...

إذ كان كاهن القرية يعلمه القراءة والكتابة... كان يحفظ دروسه ويعيها جيدا، إذ أنه ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة من عمره... بدأ في العمل مساعدا لأحد المحامين...

ثم أخذ بالاتصال ببائعي الحلوى يعد لهم ميزانياتهم ويملأ لهم التقارير الخاصة بالضرائب.

لم تكن تتوافر لديه الكتب والمجلات... وحتى الصحف اليومية لذلك كان يمزق الصحف التي على الحائط في المحطة ويقوم بجمعها بعد ذلك وقراءتها.

وقال الدكتور:

- لا أعرف كيف أتى إلى هنا، ولكنه عندما ظهر في هذه المنطقة كان مديرا لإحدى شركات التأمين الكبرى.. يهتم إلى جانب عمله الرسميَ بمئات الأمور الأخرى...

كـان يعـرف كل شيء ويتـعـامل بكل شـيء وتغـاضـوا عنه في البداية... ثم راحوا ينبهونه إلى الإهمال في عمله.

كـان إذا مـا عـرف أن سيـدة مـا تود تزويج ابنتـهـا تدخل في الأمـر بجـدية... أو أن رجـلا يرغب في السـفـر إلى أمـريكا يهب لتقديم المساعدة وتقديم ما يلزم من أوراق ومعلومات.

يشـتـري الثـيـاب والسـاعـات... يبـحث عن الأدوات الأثـرية ويقتنيها، يرهن العقارات أو يبيعها... وهكذا توسعت من سنة إلى سنة دائرة معارفه وأعماله.

يمكننا جنـي الأرباح الطائلة إذا كـانت لنا مـوهـبـة وقـوة كالتي اعتمرت في نفس كيكسفالفا وهو لا يزال شابا.

إن الثـروة الحـقـيـقـيـة لا تتـحـقق إلا بعـلاقـة خـاصـة بين المصروفات والعائدات، بين الداخل والخـارج، ولعل في ذلك يكمن السر وراء نجاح صديقنا كانيتز.

لم يكن يصرف شيئا طيلة هذه السنوات، ماعدا إعالة بعض اقاربه ودفع رسوم تعليم أخيه.

كـان غنيـا. حتى قبل أن يصبح مـسئولا كـبـيـرا فـي شـركـة التامين هنا.

أن يكون الرجل ذكيا... مجتهدا ومقتصدا...

ثم يثري آجلا أو عـاجـلا لا نظن أن ذلك يحتاج إلى اعتبارات

فلسفية خاصة.. كما أننا لا نلاحظ فيه شيئا من الروعة، فنحن الأطباء نعلم في أغلب الأحيان أن ادخارا في البنك لا يساعد مريضا بشيء، ولعل ما استرعى انتباهي منذ أن عرفته.

هي تلك الرغبة بزيادة ثروته ومعارفه في آن واحد...

يقرأ دائما مسافرا كان أم لا، في الليل، في النهار لا فرق. هكذا درس الدستور.. درس الحقوق التجارية..

كما درس التشريع الصناعي... وأصبح محامي نفسه بنفسه... يتتبع المبيعات في لندن وباريس، وكأنه بائع تحف... كان على علم بالأسهم كأحد رجال البورصة والبنوك، يعهد إليه أحيانا كثيرة بتموين ثكنات الجيش بالسلاح والأطعمة وهكذا استمر مناضلا حتى أصبحنا نعرفه اليوم بكيكسفالفا الثري.

وقطع الدكتور كوندور حديثه، وصمت برهة ثم عاد يقول:

- إن ما حدثتك به الآن عرفته من غيره، أما ما سوف أقصه عليك الآن حدثني به هو نفسه قصَّ عليَّ ذلك الكلام وأنا بجانب سرير زوجته بعد أن أجريت لها عملية جراحية مستعجلة أثناء الليل.

كنت واثقا من صدقه في كل كلمة قالها، لأنه لا يمكن لرجل أن يكذب في ساعات رهيبة مثل الوقت الذي كنا فيه.

وجرع الدكتور جرعة من كأسه على مهل ثم أشعل سيجارا

ثانيا وأخذ ينظر إليَّ بتمعن ثم استأنف كلامه:

- إن تاريخ الأحداث من الوقت الذي قطعه ليبولد أو كانيتز حتى أصبح كيكسفالفا ابتدأت برحلة قطار بين بودابست وفيينا، كان في الثانية والأربعين من عمره يمضي أوقاته في قطارات السكك الحديدية.

ولم يحدث له أن اشترى تذكرة إلا في الدرجة الثالثة، كان معتادا أن ينام حيثما كان، إذ أنه عرف الشقاء منذ الصغر وعرف أنه ليس من الضروري عندما يشتد سلطان النوم ويقوى أن نبحث عن سرير لنستلقي عليه.

ولكن صديقنا لم يكن نائما هذه المرة، إذ كان معه في نفس عربة القطار ثلاثة من رجال الأعمال يتحدثون ويتبادلون الآراء وكان هو يسمع ما يدور لأنه في مثل هذه المسائل يصبح متقد الذهن، لقد خف تعطشه إلى الثروة على مر السنين، كما خف تعطشه إلى المعرفة أيضا.

عبارة واحدة هي التي أيقظته تماما وجعلته يصيخ السمع، كان أحد الرجال الثلاثة يقول لرفاقه:

- أريدكم أن تفكروا كيف تسنى لهذا السكير أن يربح دفعة واحدة مبلغ ستين ألف كورونا.. واستيقظ وكأن دلوا من ماء بارد قد صب فوق رأسه وراح يسأل نفسه:

- من الذي ربح كل هذا المبلغ؟

وكيف؟ عليه أن يعرف حالا..

ولكن لابد أن يطمئن المتحدثون إلا أنه لا يسمعهم... ولذا فإنه أغرق قبعته في رأسه حتى حجبت عينيه ومن ثم يظنون أنه نائم لا يلقي بالا إلى حديثهم، وفي نفس الوقت فإنه أنصت حتى لا تفوته كلمة واحدة من الحوار الذي يدور بينهم.

ثم أخذ المتحدث يقص على زملائه قصة المبلغ الضخم هذا.. وكيف أن معلمه وهو محام شهير تأخر عن الوصول إلى بودابست من أجل قضية تافهة لا تدر عليه أكثر من خمسين كورونا... كانت القضية الكبرى التي سيترافع فيها تدور من حول ورثة، كانت المستندات المطلوبة كلها بحوزته وكان متأكدا من كسب القضية...

وحدث أن زار الخصم موكل معلمي وأقنعه بالمصالحة وإذا بالأخير يوقع على عقد يتنازل فيه عن مبلغ نصف مليون كورونا.

والآن انتبه يا سيدي الكولونيل، قال لي كوندور متطلعا إلي:

- إن كانيتز بقي قابعا في مكانه لا يبدي حراكا، ولكنه لا يترك كلمة تمر من أمامه دون أن يعي كل حرف فيها...

واستطاع أن يلتقط اسم «أوروسفار» الذي يتحدثون عنه والذي كان يملأ صفحات الجرائد يوميا في تلك الآونة، وها أنا أقص عليك ملخصا لتلك القضية التي شغلت الرأي العام مدة طويلة.

كانت الأميرة «أوروزفار» من مواليد أوكرانيا تملك ثروة ضخمة وعاشت خمسة وثلاثين عاما بعد أن توفي زوجها...

وأصبحت قاسية متوحشة منذ أن فقدت والديها وولديها وكرهت كل ما يتعلق بعائلة زوجها من أخوته الذين كانوا يتطلعون إلى وفاتها بفارغ صبر حتى يستولوا على التركة التي تستحوذ هي عليها وكانت هي ترفض أن تستقبل أحدا منهم إذا ما أتى إلى زيارتها، كما كانت ترمي برسائلهم التي يرسلونها إليها ولا تأخذ علما بما فيها...

كانت تبدو متغطرسة... مرتبكة حائرة منذ أن أصبحت تعيش بمفردها وكانت تعيش حياتها في ترف في الأسفار والرحلات متنقلة بين نيس ومونتروي... تقرأ الروايات الفرنسية... تساوم وتجادل كأمهر التجار وكان من الواضح أيضا أن يقاسي الشخص الوحيد الذي يرافقها متاعب جمة... إذ أن المحتم على تلك الفتاة اللطيفة المرافقة أن تعتني بها فتهيئ لها الطعام وتقلم أظافرها...

وعليها أيضا أن تتحمل سيل شتائمها الذي ينهمر عليها دون اي سبب إلا إذا كان ذلك ما تريده سيدتها...

ناهيك عن الضرب المبرح الذي كانت تكيله لها إذا ما تاخرت في الاستجابة عن أي طلب تطلبه منها.

وأصيبت الأمير أوروزفار وهي في عامها الثامن والسبعين

بمرض خطير وظن أهلها أن الساعة قد حانت ولكن خاب ظنهم إذ عاد ذلك التنين وشفي، وما إن سمعوا ذلك حتى انصرفوا عنها وعادت إلى سيرتها الأولى في الانتقام منهم.

وعندما علمت الأميرة أنهم كانوا ينتظرون موتها، اشتعلت نار الحقد وتجددت، خاصة عندما أخبرها الخدم أنهم سمعوهم وهم يتحدثون عن مقدار التركة التي ستتركها لهم ولمن ستكون الجواهر والحلي...؟

وكذلك ممتلكات أوكرانيا والقصور؟

وكانت الضربة الأولى... إذ تسلمت بعد مرور شهر على ذلك رسالة من أحد بنوك بودابست يؤكد لها أنه سيعمد إلى مطالبة ابن أخيها بما عليه من أموال لدى البنك إذا لم تؤكد له أن اسمه سيرد في وصيتها.

واعتبرت ذلك من جانبها من قبيل الوقاحة، ولذلك عمدت في الحال إلى محاميها وأخذت في إملاء وصية جديدة بحضور طبيبها الذي وقع أنها تتمتع بصحة جيدة وبكامل قواها العقلية وهي تقدم على ذلك... وأخذ المحامي الوصية معه وتركها تنام في أحضان أدراج مكتبه مدة تزيد على ست سنوات، إذ أن الأميرة لم تكن على عجلة من يوم موتها وكانت المفاجأة يوم فتح تلك الوصية، إذ أن الأميرة قد حددت وارثا وحيدا لممتلكاتها... مرافقتها الخاصة...

الآنسة ديتزونوف... اسم لم يسمع به أقاربها من قبل... إليها يعود كل شيء... معمل السكر... الخيول... ممتلكات كيكسفالفا...

كما أنها تبرعت بمعظم أموالها إلى القرية التي نشأت فيها، لم تترك لهم شيئا وإذا سألت عن سبب ذلك قالت لهم: إنهم كانوا ينتظرون موتي بفارغ الصبر.

كانت مهزلة جميلة بالنسبة إليها، وصدمة أليمة بالنسبة إليهم... وأخذوا يستنجدون بالمحامين ويعترضون على حق التصرف وتذرعوا بأن الوصية لا تتمتع بأي صفة قانونية...

إذ أنها صيغت يوم كانت الأميرة تعاني آلاما مبرحة وكانت تخضع لعناية مرافقتها... إذ أنها بالتأكيد عمدت إلى تلك الحيلة وأجبرتها على أن تجعلها تكتب لها كل شيء..

وفعلوا أكثر من ذلك، إذ حاولوا أن يعطوا هذا التصرف نوعا من انتهاك حرمة الوطن...

أرادوا أن يستغلوا ما حدث سياسيا، إذ أنه لا يمكن أن تؤول أرض أوروزفار إلى أناس غرباء.. روسيين مثلا... أو إلى الكنيسة الأرثوذكسية وشغلت هذه الحادثة الرأي العام طويلا كما استغلتها الصحافة أيضا.

ولم تفلح هذه المحاولات ولم تنجح إحداها... وصارت ديتزونوف المالكة الجديدة...

ومن المؤكد أيضا أن كانيتز قرأ كل ما ورد في ملف القضية... مع أنه لم يترك كلمة مما سمعها من المسافرين الثلاثة، أضف إلى ذلك أنه يعرف كل أراضي كيكسفالفا يوم كان معتمدا لدى شركة التأمين.

واستطرد الرجل يكمل حديثه:

- والآن... الآنسة ديتزونوف سوف تبيع معمل السكر لأن الموردين يسعون لاغتصابه... وسيحضر بعد غد المدير العام من بودابست بخصوص هذه المسألة..

أما فيما يتعلق بالسكن فسيؤجر إلى شخص يدعى بتروفيك من أصدقاء الأميرة السابقين وأعتقد أن المحتكرين أنفسهم هم الذين سيشرفون على إدارته.

ولم يعد لدى كانيتز حاجة لأن يسمع أكثر مما سمعه، ففي ذلك كفاية. قليلون هم الذين يعرفون كيكسفالفا معرفة تامة، لقد أشرف على إدارته طيلة عشرين عاما كما أنه يعرف بتروفيك تماما.

وتذكر الخزانة الممتلئة التي تحتوي على الأواني الخزفية النادرة... وشالات الحرير المطرزة التي أحضرها جد الأميرة من الصين، وتمنى لو كانت كل تلك الأشياء مازالت في الخزانة الحديدية في القصر هناك وجاءته رعشة من جراء تذكر تلك الأشياء وقال في نفسه لعله من الممكن الحصول عليها.

وتظاهر كانيتز وكأنه استيقظ فجأة واستعد للنزول إذ كان القطار على وشك الوصول إلى المحطة القريبة من كيكسفالفا، ونزل وتوجه إلى أحد الفنادق وبات ليلته واستيقظ في السابعة، وسار إلى القصر الذي يعرف طريقه تماما...

يجب عليه ألا يضيع الوقت ويكون أول من يصل إلى هناك ويصفي تلك القضية قبل أن يصل المحتكرون من بودابست وأن يتفق مع بتروفيك على ثمن البيع المقدم ويحصل على عمولته.

ووصل إلى القصر ولكنه لم يشاهد أحدا من الخدم... يبدو أن المالكة الجديدة لا تحتفظ بكثير منهم كالأميرة السابقة، وهكذا أتيحت لكانيتز فرصة أن يفحص المكان دون أن يزعجه أحد من الخدم...

ولاحظ أن المباني لا تزال تحتفظ بجمالها، ولكنه وجد المدخل العام مقفلا... وأخذ كانيتز يتنقل من باب إلى آخر ويقرعه دون أن يجيبه أحد، وأخيرا استطاع التسلل من باب جانبي وإذا به يشاهد امرأة تنسق بعضا من الزهور...

أخيرا عثر على من يستطيع أن يرشده، وقرع الزجاج الذي يفصله عنها واستدارت المرأة مرعوبة، إذ أنها كانت فيما يبدو غير متوقعة أن يفاجئها أحد.

وتطلعت إليه وبقيت مدة هكذا... قبل أن تتقدم من الباب ببرود وخجل وتفتحه للزائر الجديد، كانت المرأة شقراء ناعمة،

شابة... ونظرت إليه وقال لها:

- أهكذا تتركين الناس ينتظرون؟

أين بتروفيك؟

- أرجوك عفوا... لم أفهم ما قلت.

ردت عليه المرأة بارتباك... ثم أخذت في التراجع وإخفاء المقص الذي تحمله في يدها...

ورددت أنا مستمرا في هجومي عليها:

- كم بتروفيك هنا، إذن إنني أطلب المسئول.

- آه المسئول لم أره بعد، ربما يكون قد ذهب إلى فيينا وقد قالت امرأته إنه من المحتمل أن يعود هذا المساء بالتأكيد.

- من المحتمل... قالها كانيتز ورددها في صمت، إذن عليه أن ينتظر ليلة أخرى دون أن يعرف...

هل سيؤدي ذلك إلى فائدة أم لا؟ هل يجب أن يغيب هذا الرجل اليوم...

وعاد يلتفت إلى المرأة وهو يقول لها:

- هل يمكنني أن أزور القصر خلال تلك الفترة.

وارتعشت المرأة عند سماعها هذا الكلام... ولاحظ كانيتز ارتعاشها فقال:

هل معك المفاتيح لإلقاء مجرد نظرة؟

- المفاتيح... أجل إنها في عهدتي ولكني لا أعرف متى...

- أقول لك بأنني لا أود بتروفيك من أجل... هيا لا تضيعي الوقت هل تعرفين البيت؟

وبدت المرأة أكثر ارتيابا وقالت:

- أظن نوعا ما...

وقال كانيتز في صمت: إنها لحمقاء ويا لها من إنسان غريب يستعمله بتروفيك، ثم أمرها بصوت عال:

هيا لندخل إذن، ليس لدي وقت أضيعه؟

دخل أمامها وتبعته خائفة ثم وقفت مترددة عند المدخل.

- هيا افتحي إذن.

وتساءل غاضبا:

- لماذا هذا التردد؟

وبينما كانت تأخذ المفاتيح من كيس جلدي عتيق معلق معها كان هو يسألها على سبيل الإحاطة والحنكة:

- ماذا تفعلين في هذا المنزل يا سيدتي؟

توقفت المرأة وقد توردت وجنتاها وقالت:

- أنا...؟

لقد كنت المرافقة الوحيدة للأميرة.

وشعر كانيتز بأن أنفاسه قد خمدت، وكأن كلام محدثته قد أصابه بنوع من الأأنت الآنسة ديتزونوف؟

قالت وهي ترتعد وكأنه أصابها هو الآخر:

- أجل...

لم يكن كانيتز يعرف إلى هذه اللحظة ما يسمى بالانفعال، ولكنه شعر وهو يقف أمام وريثة الأميرة وجها لوجه أنه أمام هذا الاكتشاف الجديد، فتغيرت لهجته الهجومية وقال معتذرا:

- عفوا... ورفع قبعته وقال:

- لم يسبق أن تشرفت... أقصد لم أكن، إنني... أعتذر.

وتوقف عن الكلام وكأنه لا يستطيع التعبير.

صدمة الكهربائية وتراجع إلى الوراء وقال:

كان عليه أن يتدبر الموقف وأن يتكلم بلطف يزيل من نفس تلك السيدة ما قد يكون قد علق فيها من شكوك وعاد يكمل:

- لم آت إلا لأمور تتعلق بالتأمين... سبق لي أن أتيت إلى هنا مرات كثيرة في السنوات الماضية...

يوم أن كانت الأميرة على قيد الحياة ولسوء الحظ لم أتشرف يا آنسة يومذاك بلقياك...

أريد الآن أن أعرف وأرى إذا كان كل ما أؤمن عليه لا زال قائما في مكانه...

إننا مجبرون على ذلك... رغم أنه ليس هناك من ضرورة أو إلحاح وقالت المرأة خائفة:

- أرجوك... وبما أنني لا أعرف شيئا عن تلك الأشياء فمن الأفضل أن ننتظر عودة السيد بتروفيك... أ

ليس كذلك؟

وأجاب كانيتز بسرعة:

بالتأكيد... بالتأكيد... ولكن النظرة التي سوف ألقيها لن تاخذ الكثير من وقتك إذا لم يزعجك ذلك...

أما من حيث الباقي فلا أظن أنه قد حدث أي تغيير يذكر.

وأجابت باستعجال:

لا... لا... لم يتغير شيء ولعلك تتحقق من ذلك بنفسك.

فرد كانيتز منحنيا: إنك لطيفة يا آنستي.

ثم دخل الاثنان إلى القصر.

وعندما وصل إلى الصالون... تطلع قبل كل شيء إلى لوحات

(جاري) الأربع التي تعرفها... ثم إلى مقعد أديت حاليا والخزانة حيث الأواني والفضيات الثمينة.. إن كل شيء لا يزال في مكانه ولم يسرق بتروفيك شيئا..

إن الأبله يكتفي بحصة من الأشياء البخسة الثمن، وأثناء ذلك كانت الآنسة ديتزونوف منصرفة إلى فتح النوافذ كي لا تقطع على الغريب تأملاته ودخل النور وهو يضيء كل شيء... وانسل النظر من وراء الزجاج الكبير إلى الحديقة...

وجد كانيتز الفرصة مواتية مرة أخرى وعليه أن يبادر الآنسة بالحديث.

- إن منظر الحديقة رائع.. إنه لرائع أن يسكن الإنسان هنا.

وردت عليه ولم يكن ردها صادقا:

- أجل... غاية في الروعة.

وشعرت هي أن كانيتز قد فطن إلى الفتور في ردها فعادت تقول:

- إن الأميرة لم تسر من المعيشة هنا في حقيقة الأمر... كانت تقول إن البلد الذي تكثر فيه السهول يثير أشجانها...

لم تكن تحب سوى البحر والجمال.

وتوقفت عن الحديث...

وقال كانيتز في نفسه: علينا أن لا نقطع حوارا بدأناه.

- ولكنك يا يا آنستي يبدو أنك لا تشاطرينها الرأي.

فرفعت يديها عفويا كأنها تبعد شيئا ما أزعجها وقالت:

- أنا، ولماذا أعاني أن أفعل هنا لا... لا سأذهب عندما تعود الأمور إلى نصابها ويترتب كل شيء.

وتطلع إليها كانيتز وقال لنفسه:

- كم تبدو حقيرة في تلك الغرفة... يا لها من مالكة تعيسة... لولا ذلك الشحوب البادي على وجهها والخوف المسيطر على نفسها... لظنناها جميلة...

إن وجهها المستطيل الشكل وأهدابها الطويلة المسدلة أشبه بمنظر أفسد رونقه الشتاء...

وعرف كانيتز وهو الخبير المجرب أنه أمام شخص ضعيف الإرادة والكيان... ولذلك سألها:

- ولكن ماذا سيحل بهذه الأرض الجميلة؟ إنها تحتاج إلى إدارة حازمة وقوية.

وجاءه الرد سريعا:

- لا أعرف.

لقطت هذه الكلمات بعصبية واضحة، بينما كان الارتباك

يسود كل جسدها ويهزه هزا في تلك اللحظات بالذات..

فهم كانيتز أن هذه المرأة التي كانت لعدة سنوات تخضع لسيطرة الأميرة سوف لا تكون لها الشجاعة الكاملة كي تقرر شيئا ما من تلقاء نفسها.

كما أنها تبدو خائفة من ذلك الميراث أكثر منها مسرورة منه... إنه بالنسبة لها عبء غير قليل يسقط فوق منكبيها.

وفكر بسرعة البرق أن ما فعله طيلة العشرين عاما الماضية من البيع والشراء كان الفصل الأول من مهنة الوسيط، وهنا عمد إلى استعمال أساليبه الخاصة...

يجب أن يجعلها تكره هذا المكان.. وفكر ولربما توصل إلى تسوية للقضية فيقطع على بتروفيك هدفه ويسبقه.. من يدري؟ لعل المسئول لم يذهب إلى فيينا إلا من أجل هذا الهدف.

ثم قال يخاطب الآنسة:

إنك على حق في ذلك فإن كثرة ما يملكه الإنسان يثير له من الهموم الكثير...

إذ أنه يتعين علينا أن نبقى في صراع دائم مع المسئولين، الجيران، علينا أن نرجع دائما إلى الضرائب، والمحامين، إننا محاطون بالأعداء دائما ومهما فعلنا، يتسابقون لاقتسام الأموال.

- إنك على حق يلزم لإدارة تلك الممتلكات إدارة من حديد

وإلا لا نحصل على شيء منها حتى ولو أننا ولدنا من أجل هذا... نجد أنفسنا دائما نتصارع.

وقالت متنهدة:

- للأسف إن الناس في منتهى القسوة عندما تصل الأمور إلى الأموال لم أكن أعرف حقيقة هذا الأمر إلا بعد أن وقعت فيه.

وكان عقل كانيتز يعمل ويفكر..

كيف يمكنه إدارة هذه الممتلكات؟

فوجد إجابته أنه يؤجر كل شيء إلى بتروفيك ويتحفظ لنفسه بالقصر فقط.

إن ما يهم الآن هو عرض مبلغ على الفتاة... إنها سوف تقبل... إن نظرية التخوف التي تسيطر عليها ستجعلها تقبل...

إنها لا تعرف أن تعد لأنها لم تربح أبدا... ولذلك لا تستحق اكثر من ذلك.

وبينما كان عقله يعمل بحرارة... كانت كلماته تخرج محاولة ان تسيء إلى شعورها وكانت هي تصغي إليه ثم قالت:

- إنني أود أن أبيعها.

وكان ذلك ما ينتظره... فقال دون أن يعطيها فرصة الاستطراد:

- البيع.. أجل... يمكننا أن نبيع دائما ما يسبب لنا الإزعاج.

وكان عقله ما يزال يقوم بعملية الحساب والعد... أربعمائة ألف كورونا... وإذا لم تقبل أربعمائة ألف وخمسمائة...

إنه الحد الأعلى للفصال معها... عملية من عمليات النصب والاحتيال المشروع.

وقاولها مستدرجا:

- هل لديك تقريبا فكرة عن الثمن الذي تطلبينه؟

وأجابت وهي منهوكة القوى من التفكير:

- كلا... كلا... لم أفكر على الإطلاق في مسألة النقود.

وبينما كان كانيتز يحاول أن يكتم صورة من ملامح لجشع التي تسيطر عليه سألها:

- هل هناك أية أنواع من الرهونات على العقارات؟

- رهونات؟

وأخذت تعيدها وكأنها تسمعها للمرة الأولى.

وأكمل كانيتز:

- آه مثال أتعاب محاماة، ضريبة الإرث، اعذريني إني نصحك فقط، ألم يقل لك المحامي أية أشياء من هذا القبيل؟

- محام؟

أجل... أجل...

لقد كتب لي شيئا من هذا القبيل انتظر وسأطلعك.

ولكنها توقفت وترددت قليلا ثم قالت:

- أخشى أن أزعجك بهذه الأشياء التي لا تخصك.

وارتجف كانيتز.. كان كل شيء يأتي إليه أسرع مما يذهب إليه هو... ولذلك انحنى بتواضع وضحك في صمت وقال:

- يسرني أن أرافقك آنستي إن لي خبرة كبيرة في هذا المضمار، لقد كانت الأميرة تشاورني عندما تحتاج إلى المعلومات الاقتصادية والمالية.

وذهبا إلى حجرة المكتب وكانت الأوراق الكثيرة مبعثرة هنا وهناك في إهمال واضح... وأخذت تفتش في ارتباك واضح... وأخيرا عثرت عليها وقالت:

- أظنه هو.

تناول كانيتز الورقة وتفحص القصاصة الملصوقة بها... كانت رسالة مقتضبة من المحامي النمساوي يقول فيها:

(اتصل بي مندوب التأمين وأخبرني أن القيمة التقديرية للإرث منخفضة جدا... وأنه يصر عليها تهربا من دفع الضرائب

الباهظة... وكما أنها في نظري لا تساوي إلا ربع القيمة الحقيقية).

قرأ ذلك ويده ترتجف... إن كل ما يهمه هو هذا القصر فحسب... كانت قيمته كما هو مكتوب في الورقة مائة وتسعين ألف كورونا.

وشحب وجه كانيتز. كان ذلك ما قدره هو. إذ أن القيمة الحقيقية هي ثلاثة أضعاف ما ورد أمامه، أو ما يقارب مبلغ الستمائة ألف كورونا...

ترى كم يمكنه أن يعرض عليها الآن؟ وراحت الأرقام تتراقص أمام عينيه.

وسألته الآنسة قائلة بخوف:

- هل هذه هي الورقة المطلوبة؟

وهل يمكنك أن تقرأها لي؟

أجابها وقد خرج عن شروده:

- بالطبع، إن المحامي يخبرك علما بالقيمة: مائة وتسعين ألف كورونا... إنها قيمة تقديرية بالطبع.

- قيمة تقديرية. عفوا... وماذا يعني ذلك؟

وكان عليه أن يضرب ضربته الآن، وإلا أفلتت منه فرصة

العمر قال لها:

- القيمة التقديرية هي شيء غير حقيقي يشك فيها، إذ أن التقدير الرسمي لا يتجاوب أبدا مع سعر البيع الحقيقي.

- كم تقول؟

وشعر أن الدم يصعد إلى جبهته وهو يقول لها:

- أجل هذا ما فكرت به مائة وخمسون ألف كورونا.

وعادت المخلوقة الوديعة تسأله:

- ألا تظنه يساوي أكثر؟

- لا. يا آنستي، إنما يمكنني أن أحصل لك على هذه الكمية فورا إذا رغبت في البيع بالطبع.

ووجدت أن ما يعرضه عليها كانيتز مناسبا، واتفقا على أن نرحل إلى فيينا عندما يتدبر هو أمر المشتري الجديد للقصر.

غادرا المنزل بعد الظهر، وقبل الرابعة عندما وصل بتروفيك، كانا قد رحلا وسافرا في الدرجة الأولى وقادها إلى فيينا إلى أحد الفنادق الفاخرة، حيث نزل هو في غرفة مجاورة لها.

كان ينوي أن يقدمها إلى شريكه في المؤامرة الدكتور كولينجر على أنه المشتري الجديد ولكنه لم يستطع أن يتخلى عنها ولو لفترة واحدة كما أنه لم يترك لها دقيقة واحدة من

الراحة والاستقرار.

اقترح عليها أن يذهبا إلى الأوبرا ويمضيا سهرة رائعة، بينما هو يستمر في البحث عن الرجل الوهمي لعقد صفقة الشراء.

ونزلت المرأة عند رغبته لتتخلص من الضجر والعزلة المحيطين بها وتركها هناك لمدة أربع ساعات، بينما خف هو إلى لقاء كولينجر المزعوم.

لم يكن هذا الأخير في منزله، بحث عنه طويلا واستطاع أن يجده في أحد البارات ووعده بألفين من الكورونات كأجر إن هو دبر أمر كل شيء ونظم عقد البيع بالطريقة التي يرغبها كي يتسنى له لقاء كاتب العدل هذا المساء بالذات.

وترك كانيتز العربة التي أقلته إلى منزل الدكتور تنتظره. وما أن انتهى من ترتيب خطته حتى عاد مسرعا إلى دار الأوبر حيث ترك المرأة ويعود بها إلى الفندق...

ومرت عليه ليلتان دون أن يغمض له جفن خلالهما... وكان كلما اقترب من الهدف يشعر بالخوف يشده ويضغط عليه.. خوفه من أن يفقد الفتاة في اللحظة الأخيرة..

إنه يرقد في سريره نصف ساعة ثم يعود إلى دراسة خطته والتأكد منها بكل دقة... عليه ألا يتركها وحدها مهما كانت النتيجة، ولذلك استأجر عربة تنقله إلى حيث يريد، لم يكن ليسير خطوة واحدة سيرا على أقدامه خوفا من إضاعة الوقت

وفقدان الفتاة بالتالي، يحاول إبعاد الصحف عنها ولا يتركها تفسر شيئا، إذ ربما وقع نظرها على قضية الإرث التي سيعاد النظر فيها.

كانت كل مخاوفه مبالغاً فيها... إذ أن الفتاة نفسها لم تحاول ولو مرة واحدة التخلص منه.

وعندما عاد إلى الفندق بعد ليلة متعبة وجدها تنتظره هناك في غرفة الاستقبال... وقادها إلى صاحبه المزعوم وهناك اتصل تليفونيا بأشخاص لا وجود لهم... أخذها إلى البنك وهناك طلب مقابلة المدير وراح يحادثه بالفائدة التي يقدمها البنك..

وكيف يمكنه استخدام نقودها واستثمارها، لقد اعتاد على مثل هذه الأمور ولم يعد يجد فيها ما يزعجه.

كانت تنفذ كل ما يطلب إليها، توقع على الأوراق دون أن تقرأ ما ورد فيها، تعطي إيصالات دون أن تقبض قيمتها بعد.

تقوم بكل هذا في هدوء مما جعل كانيتز يفكر بأنه يمكنه أن يدفع لها مائة وأربعين ألفا أو حتى مائة وثلاثين ألفا...

وشعر بإرهاق فعرض عليها أن يدخلا أحد المقاهي ويرتاحا... لقد تم كل شيء ولم يعد هناك سوى الذهاب إلى كاتب العدل في تمام السابعة فيوقعان الأوراق بعدها يدفع لها المبلغ المتفق عليه.

وتطلعت إليه ووجهها يوحي بالبراءة والثقة إليه ثم سألته:

- هل أستطيع أن أعود غدا صباحا؟

- بالتأكيد، إذ أنك ستكونين الإنسان الأكثر اطمئنانا خلال ساعة واحدة من الآن ولم يعد بك حاجة للتفكير بالأرض والمال، إن الستة آلاف كورونا التي ستقبضينها تكفيك وتفيض ويمكنك أن تعيشي حسبما تشائين وأينما شئت.

وسألها بطريقة مهذبة:

- إلى أي مكان تنوين الذهاب؟

فتجهم وجهها فجأة وأجابت...

- فكرت أنه من المستحسن أن أذهب أولاً لزيارة بعض أقاربي في «وستفالي» وأعتقد أن هناك قطارا سيذهب إلى هناك صباح الغد.

وهنا أظهر كانيتز لباقة فائقة إذ أنه تناول دليل السكك الحديدية وراح يدرسه بدقة ويخطط الرحلة للفتاة، تبين له أن قطار السكة الحديد الذي يصل إلى فرانكفورت هو الأفضل.

ومر الوقت سريعا أكثر مما كان ينتظر كانيتز.

وهنا نظر إلى ساعته وعاد يقول:

والآن هيا بنا إلى كاتب العدل.. ساعة واحدة تكفي لترتيب

الأمور ويصبح هو مالكا لثلاثة أرباع الإرث.

وعندما قرأ صاحبه اسم قصر الأميرة والقيمة المعروضة لشرائه تطلع إليه غامزا وهذا معناه...

إنها فرصة ذهبية ممتازة... عرفت كيف تستغلها حتى أن الكاتب نفسه تطلع من وراء نظارته وابتسم وقال لنفسه:

(امرأة مسكينة وقعت في أيد سيئة).

ولكنه لم يفض بشيء... ليس من شأنه ولا من حق كاتب العدل أن يتدخل بين بائع ومشتر، وهيأ العقد وطلب إلى الطرفين أن يوقعاه...

فأومأ إلى الآنسة ديتزونوف وارتعشت الإنسانة الخجولة... وتطلعت إلى الكاتب وكأنها تسأله ماذا عليها أن تفعل...

هز برأسه مشجعا فتقدمت من الطاولة ووقعت اسمها.

الاتفاق واضح وبخط يقرأ... ووقع صاحبه اسمه بسرعة... وبهذا انتهى كل شيء... وناول كانيتز الكاتب المبلغ ثم انصرف هو والفتاة وهو يكتم أنفاسه...

وما إن وصلا إلى الشارع استأذن من الفتاة إذ أنه شعر بالخوف من أن يبقى وحيدا مع فريسته.

ولكنه قال سأرافقها حتى الفندق ثم ينتهي كل شيء...

حتى فريسته المسكينة بدت منزعجة قلقة، وراحت تسير بخطوات وئيدة وتفكر...

ولاحظ كانيتز هذا التغير ولم يقل شيئا...

كان يحس بها تفكر بكل شيء وهي تنقل خطاها، أظنها فهمت الآن بأنني المشتري، ولربما انهالت علي بالملامة والتقريع وأنها جد نادمة على ما قامت به وستذهب منذ الغد لمراجعة محاميها، ولكنها اشتعلت فجأة وتملكتها الشجاعة ثم اقتربت منه وقالت:

- عفوا...

وبما أنني سأذهب غدا أود أن ينتهي كل شيء اليوم.. أريد أن أشكرك أولاً عن كل ما عانيته من أجلي، وأرجوك أن تخبرني كم ترغب بدل أتعابك، إذ أنك خسرت وقتا طويلا، وأنت تعمل من أجل هذا...

أريد أن أصفي كل شيء قبل ذهابي.

وفجأة توقف قلب كانيتز عن العمل وتسمر في مكانه، لم يكن ليحتمل مثل هذا الإفصاح أو ينتظره، لم يكن مستعدا لاستقباله بالفعل.

وأجابها بتلعثم:

- لا يتوجب عليك دفع أي شيء أبدا.

ثم أحس بالعرق يتصبب من وجهه. وتعجب كيف يحدث له هذا وهو الذي أمضى سنتين يخطط ويناور للحصول على هذا العقار، كم من المرات أهين وأقفل في وجهه الباب.

أما أن يكره إنسانا ما فهذا لم يحدث له ولو مرة واحدة في حياته، وشعر بالرغم منه أن عليه أن يعتذر لهذه الفتاة اللطيفة.

وقال:

- لست مدينة لي بشيء، ولن أتقاضى أي شيء، إنما آمل أن يكون ما قمت به يتناسب والفائدة المرجوة لصالحك، لربما كان علينا أن ننتظر مدة قصيرة فنحصل على فائدة أكبر من هذه ولكن ما العمل...

لقد أردت أن يتم البيع بسرعة. ومع ذلك أظن العملية تمت لصالحك... نعم هذا ما أصرح به أمامك وأمام الله.

أحس بأنه استعاد أنفاسه وعاودته صراحته فتابع يقول:

- بالنسبة إلى إنسان مثلك لا يفقه من هذه الأمور شيئا عليه أن يستعين بالغير، عليه أن يقبض أقل مما يجب ويكون متأكدا مما قبضه.

أرجوك أن لا تأخذي بآراء الغير وأفكارهم، ولهذا أردتك أن تنتهي من هذه المتاعب وتتركي أموالك في البنوك، حيث تتقاضين فائدة معينة وترتاحين.

أقسم لك بأنك قمت بعمل جيد وممتاز، أقسم لك على ذلك.

وصلا إلى باب الفندق فتردد كانيتز بالدخول.

يجب أن أدعوها إلى العشاء أو لقضاء سهرة بالأوبرا... قال ذلك في نفسه، ولكنها مدت له يدها تقول:

- لا أريد أن أعيقك أكثر، يكفي ما قمت به من أجلي، إذ أنني أزعجتك ما فيه الكفاية إنك منذ يومين وأنت لا تقوم إلا بأعمالي.. ومرة ثانية أشكرك..

إنه لم يحدث لي أن رأيت إنسانا خدوما مثلك... ولم أكن لأفكر بأن عملية كهذه يمكنها أن تتم سريعا، أشكرك من كل قلبي وأتمنى لك ليلة طيبة.

أخذ كانيتز يدها ووقف برهة يتطلع إليها مشدوها.. تبدلت ملامحه بسرعة وعادت إليه شجاعته وثقته بنفسه ثم تدفق وجهه حيوية بعد أن كان أصفر شاحب اللون..

حاول أن يقول لها ولو كلمة واحدة ولكنها نظرت إليه وتخلصت من يديه برفق وسارت بخطوات أكيدة نحو غرفتها فتتبعها بنظرات مريبة وأحس برغبة في التحدث إليها قبل أن تتركه وأراد أن يناديها وإذا بالبواب يعطيها المفتاح فتدخل إلى حجرتها وتقفل الباب خلفها.

وهكذا تخلصت الفريسة من صائدها ولكن كانيتز شعر بأن الضربة كانت موجهة إليه وبقي شاردا يتطلع إلى القاعة الفارغة، جذبته أضواء الشارع فسارع إليه لا يعرف، لم يكلمه أحد بنعومة مثل هذه من قبل.

حتى أنه لم يذكر أن هناك من نظر إليه هكذا. كانت آخر كلمة تفوهت بها تطن في أذنيه «أشكرك من كل قلبي».

كلمات رقيقة تأتيه من شخص مسكين خدعه.. كان يتوقف بين فترة وأخرى ليمسح حبات العرق عن جبينه.

أحس بالجوع فدخل أحد المطاعم، كانت كل لقمة تعضه وتدمي قلبه: سأبيع العقار وسأبيعه حالا...

ماذا تراني سأصنع به؟ يدور الحوار بين عقله ونفسه مئات المرات، إنني لست مزارعا، سأعيده إليها بعد أن أتقاضى ربحا لا يتجاوز العشرة بالمائة، إنني على استعداد لإعادته إليها إذا كانت آسفة عليه... إنه يعزي نفسه بهذه الفكرة ثم عاد يفكر:

- سأكتب إليها.. لا.. سأحاول أن أجتمع بها قبل أن تركب القطار.

أجل كان هذا ما عليه أن يفعله، أن يعرض عليها فكرة استعادة العقار. وهنا ظن أن بإمكانه أن ينام الآن ورغم قلقه في الليلة الماضية لم يستطع أن ينام هذه الليلة.

ترن في أذنه كلمات الفتاة (أشكرك من كل قلبي) وهذا مما كان يتير أعصابه ويقلق راحته، لا يذكر أنه منذ ما يقرب من الخمسة والعشرين عاما أن عملاً ما أقلقه كالذي أقدم عليه الآن، إذ أن هذا كان قمتها في السخرية والسعادة والأهمية، منتهى التناقض أن تجتمع كل هذه الصفات في عمل واحد.

استيقظ كانيتز مبكرا ونزل إلى الشارع في تمام السابعة والنصف... كان يعلم أن القطار السريع لا يترك المحطة قبل التاسعة صباحا...

ولكنه أراد أن يشتري علبة من الحلوى للآنسة، كان يشعر بأن عليه أن يلاطف هذه المخلوقة ويأمل في سماع آخر كلماتها، لذلك اشترى لها علبة الحلوى وباقة من الزهور، ثم عاد إلى الفندق وطلب من البواب أن يحمل الهدية إلى الآنسة في غرفتها ولكن هذا أجابه بأنها في غرفة الطعام.

فكر لحظة... لقد كان وداع البارحة مساء مؤثرا، ولذلك خاف أن يحدث الآن شيء ما يبدد تلك الذكرى الحلوة، ولكنه قرر أخيرا أن يدخل.

كانت المرأة تجلس إلى المائدة وتدير ظهرها للباب وتقدم بحياء ووضع أمامها علبة الحلوى وباقة الزهور وقال:

- أشياء للسفر يا آنستي.

ارتعشت وتوردت وجنتاها خجلا، لم تقدم إليها باقة من

الزهور من قبل أبدا، اللهم إلا عندما كان أقارب الأميرة يطلبون منها أن تحملها إلى سيدتها، فعلت ذلك مرة...

وأجابت الفتاة:

إنها جميلة ورائعة... إنها تعجبني ونظرت إليه معترفة بجميله... لم تعرف إذا كان انعكاس الزهر أم فوران الدم هو الذي جعلها متوردة هكذا..

كانت تبدو جميلة جدا في هذه اللحظة، ثم طلبت منه أن يجلس. وسألها بصوت يوحي بالثقة والطمأنينة:

- ستذهبين إذن؟

قالت بهدوء وقناعة:

- نعم...

وسألها إذا كانت قد أرسلت برقية تعلن عن وصولها.

أجابته:

- لا... إن ذلك سوف يرعب أقاربي، إذ أنني لم أرسل إليهم برقيات من قبل.

وعاد يسألها مستفسرا:

- وهل هم مقربون جدا منك؟

- أجل، ابنة أخ تملك أرضا لا بأس بها وقد طلبوا إليها أن

تسافر إليهم وتقيم معهم قدر ما شاءت.

وسألها كانيتز:

- وماذا ستفعلين في هذا المكان المنعزل؟

أجابته خافتة وبصرها إلى الأرض:

- لا أعرف...

وتملك التأثر صاحبنا رويدا... رويدا... لقد وجد فراغا هائلا يحيط بهذه المسكينة.. وجد لديها عدم الاكتراث بالمستقبل وما يخبئه... إن حالتها تنطبق على حالته هو... الذي لم يعرف الاستقرار مثلها... وشعر بحيرته تتكرر أمام حيرة هذه المخلوقة.

وقال بصوت مرتفع يملؤه التأثر:

- لا أجد لذلك معنى... لا يجب أن تقيمي عند الأهل فليس في ذلك منفعة... كما أنني لا أراك بحاجة كي تدفني نفسك باكرا في ذلك الوكر...

نظرت إليه وفي عينيها عرفان الجميل والحزن في آن واحد

- إنني أخاف ذلك فعلا، ولكن عليَّ أن أذهب إلى أي مكان ما.

قالت هذا وكأنها تحدث نفسها... ثم عادت فتطلعت إلى كانيتز كمن ينتظر النصيحة، وشعر كانيتز بإحساس صادق غريب

صادر من أعماق قلبه فهتف قائلا:

ابقي هنا معي...

وارتعشت وتطلعت إليه مندهشة، عند ذلك فهم أنه تلفظ بشيء لم تكن تنتظره منه وما كان يجب أن يقوله... أتته الكلمات عفوية دون أن يزنها ويقدر قيمتها في نفوس الآخرين...

رغبة طارئة لم يعرف تفسيرها أو سبق له وشعر بها.

وقالت هي:

كي أكون رفيقتك؟ أليس هذا ما تعنيه؟

ورد بسرعة متلعثما:

- أريد أن أقول لك، إذا بقيت هنا، سنتزوج.

قفزت من مكانها وشفتاها ترتجفان، ولم تدر هل ستقع على الأرض أم أنها ستنتحب أم تصفعه؟ ثم خرجت من القاعة هاربة.

كانت لحظة مخيفة في حياة صاحبنا، لقد جرح وأهان الشخص الوحيد الذي لاقى عنده كل احترام وتقدير.

كيف يمكنه وهو الرجل المتقدم في السن والمرائي القبيح أن يتجرأ على إهانة إنسان ناعم طيب القلب؟ لم يغضب لتصرف مثل تصرف الآنسة بل وجدها لاإراديا على حق..

إن هذا أحسن تصرف فعلته رغم أنه قال لنفسه: لقد نلت

ما أستحق.. إنها تعرف من أنا ليتني ما أستحق فعلا.

أحس بأنه أخذ جزاءه كاملا ومن حقها أن تحتقره الآن وتنبذه... ولكنها عادت وظهرت فجأة عند الباب. قلقة حائرة... ترتجف وعيناها حمراوان.

عادت إلى الطاولة تسند كتفها إلى المقعد كي تتمكن من الجلوس ثم قالت دون أن ترفع عينيها إليه:

- سامحني... اغفر لي تلك الحماقة... كنت مضطربة جدا عندما تصرفت هكذا... كيف يمكنك أن تصرح بهذا وأنت الذي لم تعرفني جيدا؟

لم يعرف بماذا يجيبها، أو كيف يرد عليها. وآثر الصمت واعتبر ذلك علامة موافقتها على ما قاله وإصراره عليه، ولم تسافر في ذلك اليوم بل أمضت معه ثلاثة أيام...

وعاد وهو يكرر طلب الزواج منها، واستمر هكذا طيلة شهرين ثم تزوجا...

* * *

صمت الدكتور برهة، ثم عاد يكمل حديثه:

- والآن لي كلمة أخيرة... كي أقول ماذا يحكى عن صديقنا هنا من أنه احتال على الفتاة فتزوجها كي يمتلك الأرض لا.. ليس هذا صحيحا على الإطلاق. كان كانيتز يمتلك العقار وليس

بحاجة إلى زواج لكي يؤول إليه. إذ ليس في زواجه مقدار ذرة من التقدير، ومن المستحيل أن يقدم مرابٍ على طلب يد فتاة بالاحتيال إذا كانت بجمال آنستنا هذه وبهاء طلعتها.

كان كانيتز يتخوف من شيء واحد فقط: وهو أن يأتي من يخبر خطيبته بأعماله القبيحة فتنفر منه وتحتقره.. واستعمل قوة فائقة كي يبقى الستار منسدلا على ماضيه فوضع حدا لكل أعماله التي يخجل منها وأضاف إلى اسمه كلمة (دي كيكسفالفا) ثم اختفى من الزمن الاسم الأول من بطاقته.

عاش أيام خطوبته الأولى وهو يخاف أن تنفر الفتاة منه وتفقد ثقتها به. بينما كانت تنتظر هي بدورها أن تخذل وتهان أمام زوج المستقبل بعد أن عانت الكثير من هذا يوم أن كانت في خدمة الأميرة، فقنعت بالعبودية كحل وسط لكل هذه التخيلات..

وها هي الآن تلمس في ذلك الرجل الذي ربطت مصيرها بمصيره كل عناية وتقدير واحترام، كانت تعجب من كل هذا، إذ لم يكن بإمكانها أن تفهم معنى هذا الحنان، بدأت تحس ببهجة الحياة، وبدأت تتفتح مع تفتح كل يوم يمر بها بعد أن كانت تذبل مع ذبول كل يوم يمر عليها، استغرقت سنتين حتى شعرت بأنها تعامل كامرأة حقا يقدرها زوجها ويعزها، ولم تعرف السعادة الحقيقية طريقها إلى القلبين إلا بعد ولادة أول طفل لهما.

من ثم عاد كيكسفالفا إلى حب الأعمال والجري وراءها

فاختفى المشرف وتغيرت المفاهيم التي كان ينظر بها إلى أعماله، فأدخل التحسينات الحديثة إلى معمل السكر، وكف عن استقبال الناس في منزله إلا في الحالات النادرة لم تكن مصائر الآخرين تهمه... ولذلك وجه كل همه واعتنائه إلى منزله وأسرته، وهذا مما كان يزيد في سعادة زوجته وثقتها بنفسها وحبها له وتقديرها إياه.

وحلت التجربة الأولى، كانت زوجته تعاني منذ زمن بعيد من الأمراض الداخلية، لم تنفع فيها كثرة الأطعمة المغذية بل راحت تضعف رويدا... رويدا...

كانت تحاول دائما أن لا تجعل زوجها يشعر بألمها فتطبق شفتيها حتى تدميهما إذا ما انتابتها نوبة...

وكان هو يجلس بقربها تمتنع عن الصراخ كي لا تزيد آلامه هو، تريده أن يبقى فرحا مسرورا وتخفي هي صراخها ودموعها، كانت تشعر بأن ذلك هو واجبها الأول نحو زوجها وأسرتها... ولكنها لم تستطع المقاومة طويلا...

وانهارت كلية ولم يعد بإمكانها إخفاء آلامها ونقلت إلى فيينا لإجراء جراحة مستعجلة، إذ تبادر إلى ذهن الأطباء المعالجين أنها لربما كانت تعاني من مرض مخيف...

وكانت المسكينة فعلا مصابة به... وهنا تعرفت أنا إلى العائلة... كانت أول ردة فعل عند الشخصين... خوف، لم يكن

الزوج يعلم أن مثل هذه الأمراض من الصعب شفاؤها في وقت يسير، ولذلك أرسل يستدعي أكبر الأخصائيين في بودابست وعرض عليهم مائة ألف كورونا، إنني لا أنسى مطلقا تلك اللحظات الرهيبة التي وقف فيها أمامنا وراح يسبنا ويقول إننا قتلة.. خائنون.. لا رحمة في قلوبنا.

وتغير مجرى حياته منذ ذلك التاريخ لم يعد له نفس البريق... لم يعد الآن على الأرض سوى شخص واحد يهمه إنه... ابنته...

التركة الوحيدة التي أصبح هدفه هو المحافظة عليها.. جند لها الخدم والمربيات ثم أجرى تغييرا شاملا في البيت، لم يبخل بالصرف وهو المعروف ببخله واقتصاده، حمل ابنته معه إلى باريس وفيينا، يدللها ويشتري لها ما تريده وما ترغبه..

بدأ يصرف النقود بنفس الطريقة التي جمعها بها.

سوف لا أطيل وصف عبادته لابنته، كانت طفلة حلوة لطيفة... نمت بسرعة تسترعي الانتباه لما هي عليه من الذكاء والفطنة.

ومع ذلك علينا أن لا نتخلى عنه الآن بعد أن عاوده اليأس وجعله مريضا ومعقدا نفسيا، إنك تقوم بعمل رائع إذا أنت استطعت أن تدخل المرح والسرور من جديد إلى ذلك البيت القاتم المقفر.

ولعلني أخبرك هذا كي تخدع الناس وتعرف أنت الحقيقه ولا تستمع إلى أقاويل الآخرين وافتراءاتهم على هذا المسكين.

لقد قصصت عليك حياة صاحبنا تفصيليا، وآمل أن يبقى ما قلته سرا بيننا وتوجه حالا:

- لك ما تريد.

كانت هذه أولى الكلمات التي أتفوه بها إلى الدكتور منذ أن ابتدأ يسرد قصة كيكسفالفا.. كنت مأخوذا بالإيضاحات الجديدة التي تهز الكيان... ولكنني لم أستطع وقتها أن أعلم أن هناك عوامل كثيرة تتداخل وتتشعب في حياة أديت...

وأن شبحا مخيفا يرتبط بالماضي يخيم على هذا القصر؟ وفجأة عاودتني بعض التفصيلات التي لم أكن قد فهمت معناها بعد وكأن الدكتور كوندور عرف ما يدور في خلدي فهمس في أذني وكأنه يهدئ من الشك الذي في عقلي فقال:

- لا يمكنك أن تشك في هذا مطلقا يا صديقي. ولنفترض أنه كان منذ زمن بعيد.. فكيف يمكنك مساعدته ومساعدة الفتاه المسكينة لا... لا تتعجب...

وخاصة لا تخجل...

لقد تصرفت حسب غريزتك أحسن التصرف.

ألقى كوندور سيجارته في المنفضة أمامه وتابع:

- والآن حان الوقت لذهابي.

نهضت معه رغم أن معلوماته أدهشتني، فقد أثر في وجعلني اقلق وأحتار كثيرا، فتنبهت حواسي.

عندما خرجنا إلى العراء تطلع كوندور إلى السماء وهتف قائلا:

هذا ما فكرت به.. إن ضياء القمر يجذبني دائما، ستنالنا العاصفة بعد قليل... وعلينا الإسراع.

كانت توقعاته مصيبة... استمر الهواء ساخنا بين البيوت وفي الأزقة بينما راحت الغيوم السوداء تتلبد في السماء وتحجب نور القمر فبادرني كوندور قائلا:

- ستسقط الأمطار في مدى نصف ساعة وأظنني أستطيع الوصول إلى المحطة قبل السيول أرى أنه من الأفضل لك أن تدخل بيتك قبل أن تداهمك العاصفة.

لم أعد أذكر بالضبط ما كنت أنوي أن أقوله. لقد ضاعت افكاري في غيابه المخيلة كما ضاع نور القمر واختفى وراء الغيوم السوداء في السماء.

وأجبته:

- لا أحب أن أجازف.

- إذن هيا بنا لنسرع، فالعدو السريع مفيد لنا نظرا للتعب

المسيطر على أقدامنا لكثرة الجلوس.

كانت قدماي شبه مشلولتين.. تذكرت فجأة المهمة التي أوكلت إلي...

لقد حان وقت العمل وعلي أن أسأل الدكتور كيف أصيبت ابنة كيكسفالفا بالشلل..

وإذا كان هناك أمل في شفائها.

وبينما نحن نسير في الشوارع المقفرة إذا بي أجد نفسي أحدث الدكتور وأقول:

- عفوا..

إن كل ما أفضيت به إلى جانب كبير من الخطورة والأهمية لذلك أراك تفهم بأنني سأطلب إليك شخصيا ما يحيرني، فأنت طبيب أديت وتعرف حالتها أكثر من أي شخص آخر لأكوّن فكرة واضحة عنها، لذلك أردت أن أعرف فكرتك أنت..

هل هو مرض عضال أم أنها ستشفى عما قريب؟

تطلع إلي بنظر ثاقب ومشكك، هل تراه فهم ما يدور في خلدي... شك في الموضوع؟

أخفض رأسه ودون أن يخفف من خطواته بدأ يقول:

- طبعا...

كـان يجب علي أن أشك إذ أنه دائمـا مـا تنتـهي الأمـور هناك... تشفى... أو لا تشفى؟

أسود أو أبيض؟

إن عدم الشفاء لا يتعدى كونه مسألة نسبية وليست حتمية، ليس هناك من حـالات لا يرجى شـفـاؤهـا بالنسـبـة للطب لسنا بصدد هذا الآن.

كـان كـوندور يسـيـر على عـجل مما دعـاني إلى الـركض كي الحق به وفجأة خفف الخطى وقال:

لربما فسـرت لك الموضـوع بطريقـة مـعقـدة أو وهـمـيـة إذ من الصـعب تفسـيـر مـثل هـذه الحـالات بين المقـهى والمحطة، ولكنني سأعطيك مثلا يمكنك فهم ما أردت أن أقوله لك..

إنه قصة شخصية حدثت لي وتؤلمني ذكراها جدا.

حـدث ذلك وأنـا طـالب في كليـة الطـب ولم يكن عـمـري قـد تجاوز الرابعة والعشـرين... كنا في آخر الفصل الدراسي تقـريبا، فأصيب والدي بمرض شديد...

انتهت أبحـاث الأطبـاء إلى أنه مـريض بداء السكر... إنك لم تسمع بمثل هـذا المرض على مـا أظن، إنه من الأنواع الخطيـرة التي تجتاح الإنسان.

اسمع الآن تفسير ذلك:

- العلم لا يزال يجهل علاج السكر... يعذب المريض كثيرا إذ يخضعونه لفحوص طبية قاسية، لا يستطيع أن يأكل ما تشتهيه نفسه، حتى كوب الماء أو الحليب يقيسون له حرارته..

إنه نزاع مستمر أشبه منه بالموت... لا بل إن هذا الأخير أفضل منه لما يحمله من راحة... لا يمكنك أن تتصور كم درست من الكتب حول هذا الموضوع.. ثم كم عقدت من الاجتماعات وطلبت المزيد من الاستشارات، كنت أسمع الجميع يرددون:

مرض عضال صعب شفاؤه، وها أنا منذ ذلك الحين أكره هذه العبارة.

استمرت الحالة هكذا حتى يوم البارحة واستمعنا إلى محاضرة حول الموضوع ألقاها أحد الزملاء وجاء في محاضرته أن هناك مجموعة من العلماء الأمريكيين تعمل جادة كي تحصل على دواء شافٍ تستخرجه من بعض الغدد، فإذا توصلت إلى نتيجة تمكننا من أن نسيطر على مثل هذا المرض العضال في مدة أقل من عشر سنين.

أظنك تفهم الآن مدى ما كانت تتركه هذه العبارة في نفسي من سأم ولوعة...

عندما كنت في الجامعة كان داء السفلس عضالا. أما اليوم فهو سهل وقابل للشفاء تماما، لم يمت نيتشه أو شوبان أو غيرهما نتيجة مرض عضال... لا...

إنما ماتوا بأمراض لم يكن الطب بعد ليستطيع أمامها شيئا ولذلك يمكننا القول إنهم ماتوا مبكرا.

إن أديت تعاني الكثير وغالبا ما يتمرد المريض في مثل هذه الحالات الدقيقة...

إنما سوف لا أتخاذل...

سأستمر في العلاج باحثا عن الشفاء.

كنت أصغي إلى كلام الطبيب باهتمام بالغ، كان كل ما اخبرني به واضحا، وانتقل الحزن والأسى المسيطران عليه مباشرة ولا شعوريا...

كنت أريد أن أعرف أشياء أكثر من هذا وأسمع ما هو أدق من ذلك ولذلك سألته:

- هل تعتقد بتحسن ما؟

أي هل توصلت إلى إيجاد طريقة ما للعلاج...؟

لم يجب كوندور مباشرة إذ يبدو عليه أن ملاحظاتي أزعجته لذلك أسرع بخطاه وصرخ قائلا:

- كيف يمكنك أن تجزم بأنني وجدت طريقة أو توصلت إلى شيء مفيد؟

هل لاحظت أنت ذلك بنفسك؟

وإجمالا ماذا تعرف عن هذا الموضوع؟

إذ أنك لا تعرف المريضة إلا منذ أسبوع بينما أعالجها منذ خمس سنوات.

توقف فجأة والتفت إليَّ وقال بعصبية:

- يجب أن تعرف أنني لم أتوصل إلى شيء بعد.. لم أتوصل إلى النتيجة التي أبحث عنها..

فهمت؟

وهناك يكمل: لقد حاولت فقط جميع مراحل العلاج وحتى الآن لم أستنتج منها شيئا.

أخافني غضبه فحاولت تهدئته فقلت:

- رغم أن السيد كيكسفالفا حدثني عن الجلسات الكهربائية وما تعانيه أديت منها.

لم يتركني كوندور أنهي حديثي بل قاطعني ليضيف:

- خرافات.. مجرد حماقات لا أكثر.. إياك أن تعير ما يقوله لك ذلك الكهل أي اهتمام...

هل تظن أن مثل هذه الجلسات كفيلة بشفاء ابنته؟ عندما لا نعرف ماذا نفعل نشغل المريض بعلاج وهمي كي نصرفه عن حيرته التي يعاني منها...

إنني لا أعرف أكثر من أي إنسان آخر...

ما هي النقطة الهزيلة التي يمكنني الحصول عليها من أديت.

وجدته عارياً تماما أمام ضميره ولذلك حاولت أن أخفف عنه فقلت:

ولكنني رأيتها تمشي تسند إلى عكازات طبية.

لم يجب الدكتور بل تقدم مني وحدق في وجهي قائلا:

- خرافات، قلت لك... إنها آلة تصلح لي وليس لها، إن مثل هذه الآلات صنعت خصيصا لإلهاء الناس وليس لشفائهم...

هل فهمت الآن...

ليست أديت التي تحتاج إليها كما قلنا بل أنا ولماذا؟

لكي أهدئ من روع ذلك المجنون. كان علي أن أربح الوقت لكنني لا أخجل من هذه الحيل والخدع، ستشاهد النتيجة نفسك... اعتقدت أديت منذ استعمالها أنها أصبحت على درجة كبيرة من التحسن لا أظنك سررت كثيرا بهذا...

إذ لا تجد الفكرة التي كونتها عن هذا الطبيب البارع... صديق العائلة.

صور لك اندفاع الشباب أن الطب قادر على كل شيء... وها أنا أراك تتخاذل ويدب عدم الثقة بنفسك...

ولكنني آسف لذلك...

إذ أنه ليس هناك علاقة بين الطب والأخلاق، فكل مرض هو عمل رجعي في حد ذاته...

إنه ثورة ضد الطبيعة ولذلك علينا أن نجند كل ما نملك ضده... علينا أن لا نشفق على المريض...

إن المريض هو الذي يخرج عن القانون ويجرح الشريعة من تلقاء نفسه، ولكي نعيد النظام علينا أن نشفي المريض.

اكفهرت السماء، وازدادت غيومها سوادا، ودوي الرعد، ولمع البرق فأخذ كوندور يضحك ويقول:

لاشك أنك تسمع جواب الماء.. مسكين أنت لقد أسيء اليوم إليك. عليك أن تعرف مدى الإزعاج الذي تسببه عبارات المديح.

سار بضع خطوات ثم التفت ناحيتي وعاد يقول:

- أريدك أن تعرف أنني لم أهجر القضية أبدا.. لا.. سأكمل بحزم ولو استدعى ذلك خمس سنوات أخرى، والآن دعنا من حديث المهنة.

كنا قد اقتربنا من المحطة وعلينا أن نضع حداً لحديثنا لذلك أسرعت أقول له:

- أظنك تعرف طبعا.

توقف فجأة وقال لي:

- لا أفتكر شيئا...

وليس هناك ربما أو بالتالي... ماذا تريدون جميعا مني...؟

لم أقل شيئا.. ولم أصرح بشيء أكيد بعد.. لا أفتكر بشيء.. ولا أعتقد بشيء... مفهوم الآن؟...

كما أنني لا أعد بشيء أبدا... ولا أقطع على نفسي وعودا.. يكفي هذا الآن... لقد قلت ما فيه الكفاية... ولست راغبا في المزيد... يكفي، وشكرا لمصاحبتك لي... أرى أنه من الأفضل لك ان تعود الآن وإلا تبللت حتى العظام.

ولم يمد يده ويصافحني بل اتجه نحو المحطة راكضا دون أن يلتفت إلى الوراء.





أوشكت العاصفة التي طال انتظارنا لها أن تنفجر ولذلك كنت أرى الناس يسيرون باتجاه منازلهم خوفا من الرياح والأمطار، وكان أمامي شارعان عليَّ أن أمر بهما ثم الحديقة العامة قبل أن أدخل إلى الثكنة.

أسرعت الخطى فعبرت الشارعين، وما إن وصلت إلى الحديقة وإذا بي أفاجأ بالسيد كيكسفالفا جالسا هناك.

لم أصدق عيني في بادئ الأمر... كيكسفالفا جالسا هنا؟

مستحيل ماذا تراه يفعل؟

لقد تركته يستعد للنوم منذ ثلاث ساعات...

هل أنا في يقظة أم حلم؟ إنه هو بنفسه.

تقدمت منه وسألته بوجل:

- ماذا أتى بك إلى هنا؟

قل لي بحق السماء ألم أتركك تستعد لتأوي إلى فراشك؟

- لا... أو بالأحرى لم أستطع النوم، كنت أريد أن.

ولكن أسرع بالدخول الآن... ألست ترى أن العاصفة ستهب بين وقت وآخر؟ هل أتيت بسيارتك؟

أجل إنها هناك إلى شمال الثكنة بانتظاري.

- رائع... ولكن هيا بنا... أسرع... فبإمكانك الوصول قبل هطول الأمطار.

وجدته مترددا فأمسكت بذراعه أصحبه معي ولكنه استعاد قواه فجأة وأفلت مني وما أن أصبح بعيدا حتى قال:

- حالا يا سيدي الكولونيل... سأذهب... إنما أخبرني كل ما قصه عليك.

- من؟

- الدكتور.. لقد رافقته وتحدثت إليه بالتأكيد..

ماذا قال لك؟

عند ذلك فقط فهمت ما يرمي إليه، ولم يكن هذا اللقاء عفويا، بل لقد انتظرني المسكين في الحديقة كي أقص عليه ما سمعت، كان يرقبني وينتظر عودتي بفارغ الصبر وأجبته:

- إن كل شيء يسير على ما يرام وسينتهي كل شيء حسنا، إذ أنني واثق من هذا سأخبرك أشياء أخرى بعد ظهر غد، وأنقل إليك الحديث الذي دار بيننا حرفيا، أسرع الآن إلى سيارتك ليس أمامك وقتا تضيعه ستهب العاصفة حالا.

- أجل سأذهب.

وسار بالرغم منه، ونجحت في إبعاده عشرين خطوة وفجأة شعرت به يتراخى في السير ويثقل جسده فوق ذراعي وقال:

- لحظة من فضلك... دعني أجلس لحظة واحدة... لم أعد استطيع السير.

كان يتأرجح بالفعل... كرجل مخمور...

استعملت كل ما لدي من قوة كي أصل به إلى مكان يقيه المطر الغزير...

وما إن جلس فوق مقعد صغير حتى هبت الرياح عاتية وانهمر المطر ورمى بجسده فوق المقعد يستعيد أنفاسه... لقد أنهكه التعب.. كيف لا.. وهو الرجل الكهل المريض بقلبه، عندئذ فقط تبينت مدى قوته...

كان يجلس وهو يتصبب عرقا... وتملكتني الشفقة فانحنيت فوقه قليلا وأخذت أتحدث إليه بهدوء أخبرته بالعلاج الذي جربه الأستاذ فينوم ونال نجاحا كبيرا في باريس.

أحسست بجسده يعتدل وكأنه يحاول الالتصاق بي ليستدفئ. عند ذلك لم أعد أستطيع أن أقول شيئا إذ وجدت نفسي مندفعا في بحر العواطف الجياشة تجاه هذا الكهل البائس، حدثته عن النتائج الفعالة التي إشار إليها البروفيسور.

لم يدع شيئا إلا وسأل عنه. وكان يختم قوله دائما (هل تظنه على حق فيما يقول) أو (هل قال ذلك حقا)؟

كنت أشعر بثقته تعود إلى نفسه كلما أفضيت إليه بمزيد من حديث الدكتور..

لا يمكننا أن نتصور مدى الفرحة التي كانت تعم نفسه في لحظة كهذه.

من يعلم كم بقينا من الوقت هناك لولا ذلك الهبوب المفاجئ الذي يسبق العاصفة ويطرد الخوف من نفوسنا انحنت الأشجار لتقبل الأرض بقسوة حتى أننا سمعنا أغصانها تتكسر وأحاط بنا غبار كثيف وتساقطت أمامنا أثمار الكستناء بكثرة.

وقلت له وأنا أرفعه:

- عليك أن تذهب إلى المنزل الآن، إن عليك أن تهدأ وتستريح.

لقد شجعته كلماتي وشدت عزيمته، وحملته إلى العربة، وهممت أن ألقي عليه تحية الوداع وأنا أنظر إليه بحنان.

وحدث أمر لم أكن أتوقعه من ذلك الكهل المسكين، إذ أنه اخذ يدي بقوة وحملهما إلى فمه يقبلهما مرات عديدة، كل يد على حدة.

ونزعت يدي منه وقلت:

- إلى الغد... إلى اللقاء غدا.

وانطلق بعربته وبقيت أنا وحدي مندهشا من الموقف ولا ادري كم من الزمن مر وأنا على هذا الحال.

عدت في اليوم التالي إلى القصر ولم أفكر بحادث الليلة الماضية لا كمجرد فكرة عابرة؟

كنت مسرورا من شهامتي وخاصة ما سببته لي من ارتياح داخلي، وما إن قرعت باب القصر حتى أتى الخادم يفتح الباب

ويستقبلني بحفاوة بالغة، لم أعهدها فيه من قبل ثم سألني:

- هل يريد سيدي الكولونيل أن أقوده إلى شرفة البرج، حيث الآنستين تنتظرانه؟

ونظرت إليه... ولكن مالي أرى يديه تشيران بإلحاح وعينيه تشعان بالفرحة الكبرى؟

لماذا هو على عجل من أمره ماذا حدث يا ترى؟

كنت أتساءل وأنا أتهيأ لصعود الدرج المؤدي إلى الشرفة ما به اليوم؟

ولماذا يلح كي يراني فوق؟

ترامى إلى سمعي صوت موسيقى حالمة فرقة.. كاملة تعزف ألحانا عذبة هناك في أعلى البرج وأصخت السمع...

أجل... لقد كان ذلك الصوت صوت أيلونا... صوت رخيم ومثير كذراعيها...

أما الصوت الباقي فلم أستطع معرفة صاحبته. لربما عزمت أديت إحدى صديقاتها... كانت دهشتي عظيمة عندما وصلت إلى أعلى ولم أجد في الشرفة إلى الفتاتين إذ كان الصوت الثاني صوت أديت دون شك.

ومما زاد في دهشتي كون الفتاتين لم تفاجآ بقدومي.

وصرخت أديت:

- تعال إلى هنا بسرعة.

ثم التفتت إلي أيلونا وقالت لها:

- أوقفي الجرامافون...

ثم أشارت إلي لأقترب منها وأجلس بجوارها.

- وقالت لي:

ها أنت أخيرا هنا.. لقد كنت أنتظرك بفارغ الصبر... أسرع الآن وأخبرنا عن كل شيء، سبق لوالدي أن أطلعنا على شيء ما ولكنني لم أفهمه جيدا..

إنك تعرفه عندما يكون منفعلا، فهو لا يحسن التكلم ولا الإيضاح... تصور ذلك... صعد إلى غرفتي تلك الليلة حيث لم يستطع النوم ولم أستطع أنا النوم ودخل عليَّ الحجرة ولكنني كدت لا أعرفه من أول وهلة نظرا للتغير الكبير الذي طرأ عليه..

وفجأة تقدم من سريري كان في حالة من الهستريا المؤلمة... وعندما بدأ يقص عليَّ ما علمه منك كنت أتطلع إليه منبهرة لا ادري بماذا أجيبه، ظننته يحلم أو أنا التي كنت أحلم ودخلت ايلونا علينا فجأة وراحت تسأله عن العلاج وعن الطرق الجديدة التي سمع بها:

وسألت أديت:

- هيا احك لي... ماذا بك؟

لماذا تماطل؟

إنك تعرف كم تهمني كل كلمة أسمعها منك أخبرنا ماذا قال لك الدكتور؟

وأعدت عليها السؤال حتى أكسب مزيدا من الوقت:

ماذا قال لي؟

وردت علي معاتبة:

- أجل ماذا قال لك؟

إنك تعرف هذا جيدا، أراهن أن لديك أقوالا مريحة مطمئنة.. إنه يأمل أن يتوصل إلى نتائج مرضية مع مرور الوقت ويقترح إذا لم أكن مخطئة أن يحاول طريقة جديدة للعلاج. إنني واثقة بأنه سيبذل كل ما في وسعه.

لم تتبين مدى عنادي وامتعاضي أم أنها علمت منه شيئا وتغاضت عنه ولذلك عادت تسألني:

- كنت أعلم أن الطرق المتبعة الآن لا تؤدي أي نتيجة... إننا أدرى الناس بأنفسنا أكثر من أي شخص آخر...

أليس كذلك... قل لي...

ألا تذكر تلك الخطوط الكهربائية الوهمية؟ إنها أمور تستلزم

صبرا... ولكن أنى لي بالصبر وقد نفد؟

ولكن دعنا من ذلك... هيا أخبرني عن طريقة ذلك الأستاذ الفرنسي الجديدة...

هل يلزمنا السفر إليه أم بإمكاننا الاقتداء بها هنا؟ إنني أعرف تلك المصحات ولا أظنك تتصور مدى الرعب الذي تتركه مناظر تلك المستشفيات في نفسي إن علي أن...

ثم إنني لا أحتمل رؤية المرضى... إني تعبة جدا... حسنا... هيا أخبرنا... تكلم وقل لي كم من الوقت سيستغرق هذا العلاج الجديد أم أنه سريع كما يقولون...

قال لي والدي إن نتائجه تظهر خلال ستة أشهر... ما لي أراك لا تقول شيئا...

هيا... انطلق تكلم، متى سيبدأ وكم يلزمه من الوقت؟

وقلت في نفسي، إن علي أن أوقفها عن الكلام، يجب ألا أتركها تندفع في ذلك الطريق، كما علي أيضا أن أحول دونها ودون الثقة بالشفاء التام، يجب أن أتصرف بلباقة.

وقلت لها بهدوء:

ليس بإمكان أي طبيب أن يحدد مدة العلاج بالضبط، ثم إني لا أعتقد أن بإمكانهم أن يقولوا كم يلزم من الوقت منذ الآن، ثم أن الدكتور كوندور لم يتحدث بهذه الطريقة العامة

ويظهر أن ما يقصده أن العلاج أعطى نتائج ممتازة.

تبين لي أن أديت لم تعبأ بحديثي لذلك قاطعتني وهي تقول:

لا يمكنك أن تتصور مدى ارتياحي الآن، يبدو لي بأنني الآن فقط بدأت أعيش...

قمنا برحلة قصيرة إلى المدينة هذا الصباح، أيدهشك ذلك؟

سأخرج من الآن فصاعدا بمفردي لأتخلص من هذا الانتظار الأحمق، إن شفقة الناس علي لم تعد تثيرني في شيء وسأخرج غدا...

وسترافقنا أنت... ما لي أراك مندهشا هكذا... ثم إن أيلونا هيأت لنا مفاجأة حلوة...

هذا إذا لم. ثم التفتت إلى أيلونا وابتسمت ابتسامة لها غامزة:

- قولي لنا ما هي مفاجأتك؟

قالت أيلونا:

- ليس هناك أسرار بعد الآن أبدا.

- إذن اسمع أيها العزيز... لقد أراد والدي أن نذهب بالسيارة، ولكن هذا يجعل الوقت يمر بسرعة وإني أقترح أن نذهب بجولة بعربة الجياد، سننهض باكرا وهذا يتطلب منك أن تلبث الليلة هنا...

لا أظنك ترفض متعة كهذه... سنعطيك غرفة تحت، ينزل فيها من يزورنا من أصدقاء وغيرهم...

وإذا احتجت إلى شيء ما نرسل لك بيزيتا لتحضره لك من الثكنة.. عليك أن لا تعتذر وأن تحقق لي رغبتي لأننا لن نقبل منك أعذارا أبدا.

لم تتوقف عن الحديث عند هذا الحد بل استمرت تكمل وتكمل وكنت أصغي إليها منهدشا ومأخوذا في آن واحد...

كان صوتها ناعما ورقيقا... هادئا...

فيه شيء من اللذة ويدعوك إلى الإنصات إليه.. كنت أقول في نفسي أحيانا ومن يدري لعلها شفيت أو أنها تؤمن بالشفاء العاجل.

لم أتحسس معنى ما فكرت فيه إلا ذات مساء وأنا في غرفتي عندما تساءلت:

أتراني أبالغ يا ترى في معتقداتي... هل هي آمال معقودة حول العدم؟

أليس من الأفضل أن نحاول التخفيف من هذه الآمال الجارمة؟

ولكنني طردت أخيرا هذه الفكرة من مخيلتي، لماذا تراني أتساءل دائما إذا ما كنت قد قلت القليل أو الكثير في موضوع

كهذا مع أنني وعدت أن أنفذ الكثير...

وسررت بكذبتي البيضاء. إن إسعاد الإنسان ليس شرا أو خطأ.

ابتدأت الرحلة المعلن عنها في الصباح الباكر بدأناها بفرح وسرور إذ أن أول ما سمعت وأنا في غرفتي كانت ضحكات خفيفة حلوة.

عندما اقتربنا أخيرا من المحفل الفخم لاحظنا أن المتنزهين كانوا يبدون أقل رزانة مما اعتقدناهم أن يكونوا عليه:

ووصلنا إلى نهاية رحلتنا إلى مربى الخيول قبل الظهر، وكان هناك استقبال حار في انتظارنا تقدم منا الخدم..

فقد سبق لهم وعرفوا بمقدمنا كان منظرهم جميلا يمتلئون حيوية ونشاطا يرتدون قمصانا تكشف عن صدورهم الواسعة وقبعات تتدلى منها الأشرطة المتعددة الألوان.

تقدموا من الفتاتين يرونهما منزل الدجاج الكبير ولم تتمالك الفتاتان نفسيهما من الضحك أمام منظر هذه الطيور الخائفة الفضولية التي لم تعرف كيف تلتهم بعد قطع السكر المنثورة أمامها.. في هذه الأثناء كان الخادم يعد مقصفا فخما في الهواء الطلق وتناولنا مختلف الأطعمة وأخذنا نثرثر بحرية..

بينما أنا أفكر بتلك الفتاة الهزيلة الشاحبة وهي تضحك من أعماقها والتي يبدو لي أنها كانت أجمل وأنعم فتاة عرفتها في

محيط المجتمع المحيط بي أو غير بي على حد سواء...

لم أكن قد عرفتها حتى ذلك الوقت إلا كفتاة مريضة... يائسة... وإن ذلك الرجل الذي يضحك ويمرح الآن سيستدعيني بعد مضي ليلتين من الآن لأكون بجانبه ينخره الحزن والأسى.. لم يكن بي عناء لكي أفكر بنفسي... لا...

إذ أنني كنت أحس بالارتياح وحرية كبيرة.

اختار جوناك الخادم طريقا آخر كي نعود إلى القصر.. طريقا طويلا تظلله الأشجار الباسقة.

نهار حلو جميل لم تعرف أديت كيف أمضته... إنما كانت هناك مفاجأة تنتظرنا عند نهاية المطاف..

دخلنا إلى القرية الصغيرة على حافة الطريق الذي نمر به.. لم يكن هناك من يسهل مرور عربتنا حتى دخلنا الأرض بصعوبة وتناول جوناك سوطه ملوحا به في الفضاء وهو يصرح، وإذا بعض النسوة يخرجن من بيوتهن مذعورات يركضن ويقلن:

إن ابن أغنى فلاحي المنطقة سيتزوج اليوم من أفقر وأجمل فتاة هي ابنة أحد جيرانهم، وما هي إلا دقائق حتى رأينا والد العريس يقبل ناحيتنا مهنئا بسلامة الوصول وكأننا من المدعوين.

هل كان يظن بأن السيد كيكسفالفا مر عليه ليزيده شرفا.. ام انه راح يتقرب منه ويعتز بزيارته كي يزداد رفعة ومقاما أمام

زملائه المزارعين؟

واستمر يرحب بنا ويسير جانبنا ويطلب من كيكسفالفا أن يشرب نخب العروسين ونزلنا عند رغبته وأنزلنا أديت من العربة برفق ودخلنا إلى القاعة الكبرى وسط المدعوين.

ونالونا كؤوس الأنخاب وصاح والد العروس بصحة السيد ولفت هذه الصرخة صدى غريبا في القاعة ورفع كل المدعوين أنخابهم وشربوها في صحته، وتقدمت العروس وهي خجلة من أديت وانحنت تقبل يدها ومن ثم انتزعت أديت من يدها خاتما وألبسته لها...

كانت أديت تتابع الموكب وعلى فمها ابتسامة رقيقة لا تفارقه... فجأة شعرت بيدها تلامس ذراعي... ارقص...

ولحسن الحظ لم تكن العروس قد بدأت الرقص بعد...

فهي لازالت تتطلع مندهشة إلى الخاتم الذي يزين إصبعها.. عندما انحنيت أمامها توردت خجلا وزهوا بالشرف الذي ستحصل عليه بمراقصتي ثم اندفعنا نرقص.

وهذا مما شجع العريس فتقدم من أيلونا وطلب إليها أن تشاركه الرقص أيضا.

لا أعتقد أنه قد سبق لهذه القرية وحضرت حفلة رقص كهذه.

وجاءت نهاية النهار كانت تخبئ لنا مفاجأة ثانية فقد تقدمت إحدى الساحرات بعد أن رأت الهدية تقدمت من أديت وطلبت إليها أن تكشف لها عن خبايا المستقبل، بدت الفتاة منزعجة بالرغم من أنها كانت تتحرق شوقا للمعرفة ولكنها لا ترغب بأن يكون ذلك على مسمع من هذه الجموع، وتم لها ما أرادت بعد أن نقدها السيد كيكسفالفا مبلغا لا بأس به... وقلت للسيد:

- هيا بنا حان وقت الرحيل.

وساعدنا أديت على الوصول إلى العربة ووقف الجميع يحيوننا على طريقتهم الخاصة وانطلقنا في رحلة العودة.

بقيت مدة مضطربا وأنا جالس أمام أديت في العربة، جسمها يرتعش كله يبدو أن هناك فكرة ما تملكتها وسيطرت عليها وفجأة انفجرت في البكاء.. بكاء الفرح..

كانت تبكي وتضحك في آن واحد، ليس هناك شك بأن تلك السيدة العرافة قد وعدتها بالشفاء وربما بأشياء أخرى أيضا.

وفجأة أخذت تردد وهي تنتحب ونحن نحاول تهدئتها:

- دعوني... دعوني...

وكررت نفس الكلام:

- دعوني فأنا أعلم أن ذلك ليس مجدياً ومع هذا اتركوني اتخيله حقيقة إذ بإمكان الإنسان أن يخدع ولو مرة واحدة في حياته.

كان الوقت متأخرا عندما عدنا إلى القصر.. رجوني أن أبقى وأتناول معهم طعام العشاء ولكنني رفضت ووجدت أن في هذا كفاية اليوم كله.

لقد كنت مسرورا جدا طيلة هذا النهار، المشمس الجميل، ولا أرغب ومن المستحسن أن أعود إلى الثكنة سالكا الطريق المعتاد هادئ النفس كالهواء المنعش الذي يهب في نهاية الليالي الصيفية، كنت في حالة نشوى كبيرة، حيث يتبين لك أن العالم كله موسيقى وشعر فتود تقبل كل ما تراه أمامك أو يقع عليه بصرك.

وصلت إلى الثكنة ووجدت أحد مساعدي ينتظرني وهو يحمل في يده برقية تخصني وقال:

- برقية؟ وأخذتها من الرجل وفضضتها بسرعة وقرأت:

دعاني كيكسفالفا... أود أن أتكلم إليك قبلا، سأنتظرك في المقهى... كوندور...

وقبل الموعد المحدد وجدتني أمام المقهى بانتظار الدكتور وفي موعده المحدد وصل وقال:

- رائع أن أجدك هنا، كنت أعلم أنه بإمكاني أن أعتمد عليك هيا بنا إلى الداخل، كان يبدو لي في هذه المرة غريبا عما قبل سبقني إلى الداخل وطلب إلى الخادمة مشروبين وجلسنا إلى الطاولة وفي الحال بدأ حديثه:

- إليك المسألة باختصار، تلقيت برقية مستعجلة تطلب مني الذهاب إليه بسرعة..

فالكل على حد قوله بانتظاري على أحر من الجمر، فالكل يعترفون بجميلي..

لم تكن كل هذه المجاملات تسرني لماذا كل هذا الاعتراف بالجميل الخاص؟ لم أهتم بالبرقية ولم أعد لأعرها أدنى اهتمام إنما أردت أن أعرف لماذا يلح عليَّ هذا المجنون بلقائه.

ولكن رسالة البارحة جعلتني أشك في الموضوع كانت الرسالة مطولة جدا ومن أديت بالذات تقول فيها إنني الرجل الوحيد الذي يستطيع خلاصها في هذا العالم، كتبت تقول لي بأنها ترجوني أيضا أن أباشر بالعلاج الجديد إذ أنها مستعدة تماما للخضوع له.

ومن هنا عرفت أن هناك من حدثها عن علاج البروفيسور فتأكد لي أن الذي حدثها به لم يكن سواك أنت عزيزي الكولونيل.

قمت بحركة لاشعورية ولكنه لم يدعني أكمل، بل تابع كلامه:

ليس هناك اختلاف حول هذه القضية.. إنك المسئول الوحيد من اعتقادهم بأن الشفاء سيكون ممكنا بعد بضعة شهور.

إنما علينا تفادي الاتهامات غير المجدية، لقد تكلمت معك وتحدثت أنت للآخرين، كان علي أن أكون أكثر لباقة.

إنما أن تعيش مع المرضى ليس من مهامك، كيف تعلم إذن أن هؤلاء ومن يحيط بهم لهم طريقة كلامية خاصة، وأن كلمة ربما تعني أكيد، كما أن علينا تزويدهم بالأمل خطوة خطوة وإلا استفحل اليأس معهم وجعلهم مجانين.

لم أضرب لك موعدا للثرثرة والعتاب إنما شعرت بأن علي أن أشرح لك القضية ما دمت فيها وتعاني من مأساتها مع من يعانون.

كف كوندور عن الحديث ثم رفع رأسه وحدق بي ملياً ولم ألمح أي أثر للقساوة في نظره، بل قرأت فيهما أنه يشفق علي فقط، ولذلك بدأ حديثه أكثر رقة:

- إنني أدرك يا عزيزي بأن ما حدث الآن يؤثر في أعماقك. إنما ليس لدينا وقت للعواطف، لقد أخبرتك سابقا بأنني ما أن قرأت المجلة الطبية للدكتور فينوم حتى أخبرتك وتسلمت البارحة خطابا يخبرني فيه فينوم بأن نتائج اختباراته كانت مرضية بالنسبة لمرضى كثيرين..

أما علاجه الحالي فلا ينطبق على حالتنا وهنا تكمن المسألة الكبرى.. إن غالبية معالجاته تنطبق على المصابين بالنخاع الشوكي..

أما حالتنا هذه فهي في الجهاز العصبي..

هذا ما كان يجب علي أن أقوله لك.

هكذا عـرض علي كوندور القضيـة جملة وتفصيلا ولكنني وجـدت نفسي غيـر كفء لتحـمل المسئوليـة إنما وجدتني أتمتم بكلمات غير مفهومة كطفل صغير أخذ على حين غرة:

- ولكن إذا كنت قلت شيئا لكيكسفالفا إنما كان ذلك بطريقة،

قال كوندو مقاطعا:

- أعرف، أعرف، إنك لم تخلق إلا للرحمة، إنما أظن نفسي قد نبهتك وأظنك أنت تقدر الانزعاج الذي سببه ضعفك.

- أجل وإنما لا نسـتطيع ولا بأي حـال من الأحـوال ترك الإنسان وحيدا في يأسه، فالشر لا يجرب.

وتغيرت لهجة كوندور واحتد فجأة:

- أجل كثيـر من الشر، أجد من الأفضل أن يعاني الإنسان من أمراضه وآلامه المبرحة على أن ينقاد إليك وتشفق عليه، لا يجب التلاعب بعواطف الآخرين.

كـان يتكلم وصـوته مملوء بالمرارة والأسى، وفـجـأة تذكـرت كلمات كيكسفالفا وما قال له:

- عندما عـرفت كوندور بأنه لا يسـتطيع شـفـاء مـريضـة تزوجها بالرغم من أنها عمياء...

ولكن هذه لم تعترف بجميله وما زالت تعذبه حتى الآن...

وفجأة وضع كوندور يده فوق ذراعي وقال:

- إنني لا أحدثك عن ذلك بسوء نية، فقد خدعتك عاطفتك إن ذلك يحدث عادة لغالبية الناس، إنني أشعر براحة تامة لو تركت كل شيء على عاتقك، إنك تعرف العجوز وعناده، حتى ولو أنني شرحت له مائة مرة فحوى ما جاء في رسالة البروفيسور فينوم، فهو لا يكف عن التباكي ويقول...

ولكنك وعدت الكولونيل أن علينا أن نعمل على تبديد هذه الآمال الخاطئة ومن أجل هذا يجب علينا أن نعمل وبدون إضاعة الوقت.

توقف كوندور عن الكلام، لقد كان ينتظر إجابتي، إنما لم تستطع عيناه أن تقعا على عيني، كان علينا أن نبدد كل شيء بضربة واحدة...

كان علينا أن نعيد المريضة إلى حالتها السابقة.. أن نرمي في الجحيم كل ما هو وسواس وألم...

وقلت لمحدثي:

- ولكننا لا نستطيع...

ثم توقف عن الكلام...

وسألني بصوت حاد:

- تستطيع ماذا؟

ننتظر لنقول لهم هذا.. ثم ما رأيك لو تركناهم يعيشون بالأمل وندع هذا يستمر هكذا حتى نهايته.

أخفضت صوتي لأنني لاحظته يتفحصني بتمعن.

وتوقف كوندور عن تفحصي وقال:

- فكر مطولا فيما ستتوغل فيه... يجب أن تملك الشجاعة الكافية لتعيد الثقة إلى إنسان سبق لنا أن خدعناه...

هل بإمكاني الاعتماد عليك؟...

قلت: تماما...

أجاب وهو يبعد كأس شرابه.

- حسنا. آمل أن يسير كل شيء في الطريق القويم والآن سأقول لك إلى أي مدى سأذهب ولا خطوة واحدة خلاف الحقيقة، سأشرح لهما كل شيء وأطلعهما على ما لم يعرفاه أما إذا أصرا وتمسكوا بأقوالك فإن المسألة تتعلق بك الآن مبدئيا وشكليا كي تعيد الأمور إلى نصابها.

ثم توقف فجأة وهو يردد:

اعتبر أن المسألة قد سويت الآن.

تركنا المقهى وخرجنا إلى حيث كانت العربة تنتظر، وما إن صعد حتى همست أنا أناديه وأقول له شيئا، ولكنني عدلت عن

ذلك وتابعت طريقي.

وبعد مضي ثلاث ساعات وجدتني في الثكنة أقرأ البرقية التالية:

تعال غدا، لدينا أشياء كثيرة نرغب أن نقولها لك، لقد غادرنا الدكتور اليوم، سنذهب بعد عشرة أيام، إنني بغاية السرور... أديت.

كان كل شيء على ما يرام في منزل كيكسفالفا، فأحضرت معي باقة من الزهور خصيصا لكي أعطيها لأديت، وقابلتها وراحت تحدثني بدون انقطاع.

كان صوتها مؤثرا حتى أنني شعرت به يجرح ضميري، ولذلك حاولت أن أغير مجرى الحديث فيصبح كلاما مزاحا، فقلت:

- هل تعرفين الخيالة؟

فقالت:

- نعم... إن أروع فترة للركوب هي فصل الربيع، فعندها يكون الطقس مثاليا لممارسة ذلك.

وقلت لها:

- أجل، يبدو أنك تعلمين هذا جيدا.

وقالت مقاطعة إياي:

- متى تأتي؟

لم أفقه ما ترمي إليه وقلت ببراءة:

- أين ذلك؟

وقالت هي:

- لا تلق أسئلة بهذه الحماقة.

- إنني أسأل حقا.

- إذن تأتي لتزورني في الأنفادين.

لم تعاودني فكرة السفر هذه، ولم تخطر ببالي على الإطلاق وقلت:

- أجل فهمت الآن وضحكت ثم قلت:

أود أن أعرف منكم أيها المدنيون كيف تتصورونا نحن العسكريين لا يا عزيزتي أديت.

إنك تتصورين أن الأمور سهلة جدا وقريبة المنال.

وقالت لي:

- إن كل شيء يبدو سهلا عندما ترغب في تحقيقه، لا تصرف وكأنك إنسان لا يمكن الاستغناء عنه.

أما ما تبقى بالنسبة للإجازة فإن والدي سيرتب كل شيء في مدة لا تتجاوز النصف ساعه إنه يعرف أناسا كثيرين في وزارة الحربية وبكلمة واحدة منهم يمكنك أن تحصل على كل ما ترغب.

التزمت طريقة المزاح طيلة حديثها ثم قلت:

- حسنا، ستكون العطلة في سويسرا، ولكن هل لديك فكرة عما تتكلفه رحلة كهذه يا أديت؟

تململت وكأنها شعرت بأنني أعني شيئا في حديثي.

وقالت:

- أهذا ما عنيته.. إنه لا يتعدى الأرقام البسيطة وبعيد كل البعد عن الحسابات الخيالية التي تفكر بها.

لم أعد أستطع أن أبدد استيائي هذه المرة. لقد أصابت الشعور وجرحت الأحاسيس، لم أكن أملك مليما كثروة شخصية، كل ذلك يجرح كبريائي وهم يتكلمون أمامي باحتقار عن المال والثروة، هناك كان يكمن شللي..

وهناك كنت أحتاج إلى عكازين أكثر مما تحتاج هي.. ودون أن أدري شعرت بأنني أصبحت فظا لا يطاق.

وقلت بعصبية واضحة:

بدون شك، لا، إنما أظنها لا تتعدى بضع مئات من

الكورونا شيء زهيد.

ولذلك يبدو لك أن الحديث فيه لا يستحق الاهتمام...

أليس كذلك؟

هل سبق لك وتساءلت كيف يتصرف ضابط مثلي؟ لا دون شك.

حاولت أن أخبرها عن فقري المدقع، بينما كانت تتأملني وتتطلع إلي بحماقة واستغراب، شعرت بموجة من الفرح العارم تجتاحني وكدت أن أشرح لها معنى وجودي.

- هل تدركين ما يربحه الضابط؟

هل فكرت بذلك يوما ما؟ وهنا أود أن تعرفي، فأصرح لك بأنه يتقاضى مبلغا ليس كبيرا، عليه أن يدفع منه ثمنا لطعامه وشرابه ويواجه به الواجبات التي تقتضيها رتبته، هذا إذا لم يحدث أن يصيبه مرض ما.

تبين لي فيما بعد مدى الطلاقة المرة التي كنت أتحدث بها عن أموري الشخصية..

كيف يمكن لفتاة لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها أن تمضي وقتها كله فوق مقعدها المتحرك.. كيف يمكنها أن تحسب للمال حسابا وتقدر قيمته أو تفكر بتعاستنا الذهنية، إنما تملكني حب الانتقام والتشفي من الإهانات التي كنت قد لاقيتها.

وما أن رفعت ناظري فتطلعت إليها حتى تبين لي مدى عمق قساوتي. اعتراها خجل شديد ثم تطلعت إلي وقالت:

- وتجرؤ أن تشتري لي زهورا غالية الثمن كهذه؟

- كانت فترة أليمة استغرقت لمدة طويلة، كان كل منا يشعر بالخجل أمام رفيقه، جرحنا أحاسيس بعضنا البعض دون أن نريد ذلك.. وبتنا نخاف أن يتلفظ أي منا بكلمة واحدة.

وفجأة سمعنا صفير الرياح بين الأشجار وفي البعيد البعيد صوت محرك سيارة يبتعد.

وقالت أديت:

- كنت مجنونة كبيرة عندما أصغيت لكل ما قلته ولا زال ذلك يثير رعبي حتى الآن، ماذا يعني بالنسبة إليك سفرا ورحلة؟ إذا أتيت لزيارتنا ستحل علينا كضيف وحسب...

هل خطر لك أنه لو قبل والدي زيارتك لنا أنه سيدعك تتكبد أي مصروف؟!..

إذن لندع هذا ولا نعود إليه مطلقا كما أنني لا أحب أن أسمع أية كلمة أخرى حول هذا الموضوع ولكنني لم أكن لأخضع، إذ لم يكن هناك ما يزعجني باعتباري إنسانا يعيش على هامش الأمور، لذلك قلت:

- بلى، كلمة أخيرة أود أن أقولها لك، يجب ألا يكون بيننا

سوء تفاهم، ولذلك أصرح لك بكل وضوح: لا أود أن تطلبوا شيئا من رؤسائي، إنني غير مستعد لاستجداء الإحسان مهما كان نوعه، وأرفض كل حماية، أريد أن أعامل كزملائي، لا أريد أن آرتبط بشيء أو أتدخل بشيء...

إنني أعلم بأنك وأباك تملكان من الأفكار الجيدة، لا بل الأكثر إجادة في العالم كله، لكن هناك كثيرين لا يرغبون بأن تهبط عليهم الأشياء من السماء بسهولة.

وقالت بغضب:

- وهكذا ترفض أن تأتي؟

وشرحت لها:

لم أقل هذا، بل لقد شرحت لك الأسباب التي تمنعني من الحضور إليك، وعلقت هي قائلة:

- وحتى لو طلب والدي إليك؟

- وحتى في هذه الحالة.

- ولو رجوتك من كل قلبي، وبصدق وإخلاص؟

- أرجوك لا تفعلي ذلك فإن النتيجة معروفة مسبقا، الرفض.

أحنت رأسها ولم تقل شيئا، إنما لاحظت فمها يرتجف،

وذلك يدل على الانزعاج النفسي الذي بدأت تعاني منه، إن هذه الصبية التي يكفيها أن تتفوه بكلمة واحدة لتضع البيت في إمرتها، تصدم الآن بمقاومة كهذه، إنها تجد من يسيطر عليها، ومن يقول لها: لا، للمرة الأولى في حياتها، وهذا ما أفقدها السيطرة على نفسها، وفجأة تناولت أزهاري من فوق المائدة وألقتها على الأرض ثم داستها.

وقالت:

- إذن سوي الأمر ورفضت، سوف لا تزورنا ولا تأتي إلى البيت، إن ذلك لا يلائمك أبدا.

ولكن هناك مسألة سأسألك عنها وأريدك أن تجيبني بصراحة.

- أكيد.

- بكل تأكيد، بشرفك، إذن أقسم.

- إذا كنت تصرين، سأقسم:

حسنا لا تخاف سوف لا أصر على زيارتك لي، ولكنني أرغب في أن أعلم شيئا واحدا فقط، مازلت ترفض أن تأتي معنا لأن أشغالك تمنعك، فلماذا تأتي إلينا دائما؟

كنت أنتظر كل شيء باستثناء هذا، ولذلك رحت أتمتم، وأنا في حيرة من أمري محاولا أن أكسب الوقت.

- ولكن، ولكن...

فهي مسألة بسيطة وأن ذلك لا يستوجب القسم.

- سهل وبمنتهى البساطة، أجل، هيا إذن.

لم تكن هناك طريقة للتخلص ووجدت أن أسهل الأمور وأشرفها هو قول الحقيقة، إنما كان علي أن أقولها بمهارة فائقة، وهكذا ابتدأت فقلت:

- لا تفتشي عندي يا آنستي العزيزة أديت عن أسباب مجهولة، إنك تعرفين جيدا كي تتأكدي من أنني لست الرجل الذي تحاك القصص من حوله كثيرا.

لم أفكر يومًا ما لماذا أزوركم.. إنني لا أستطيع أن أقول أكثر من هذا.

أتردد عندكم لأنني أشعر براحة تامة هنا أكثر من أي مكان اخر... يعاودني وأنا في بيتكم شعور الـ...

وتوقفت هنا تلقائيا.

- أي شعور؟

قالت بإلحاح.

- أشعر بأني قرب شخص أسر به وأستأنس إليه أكثر من اي إنسان آخر، أعرف ذلك جيدا، وكثيرا ما أتساءل: هل تريدينني قربك؟

أم هل يزعجك هذا أكثر مما يفرحك؟

وكلما وجدتك هنا وفي غرفتك تهنأ نفسي على المجيء إليكم، وأود أن لا أتركك طيلة النهار.

توقفت العيون الرمادية عن التحرك واستقرت تتطلع إلي، وراحت الأصابع العصبية تضرب ذراع الكرسي على مهل.. بطيئة في البدء وبعصبية فيما بعد.. وإذا بها تصرخ في شراسة:

- أجل، أفـهم، إنني أدرك الآن تمام الإدراك مـا تريد أن تقوله، أظنك الآن قلت الحقيقة، وقد أفصحت عن ذلك بطريقة ماهرة ومهذبة ولكنني فهمت مع ذلك إنك تأتيني خوفا من كوني وحيدة ومسمرة إلى هذا المقعد لا أفارقه.

ومن أجل هذا فقط تزورنا كل يوم كـأحـد الواعظين يزور مريضته المسكينة، إنك هكذا تدعوني عندما تأتي ولا تجدني، لماذا تحاول أن تفكر؟

أتشفق علي؟

ألست ذلك الرجل الصالح الذي يرتعش قلبه لرؤية كلب مقتول؟

وأليس الحال هو نفسه بالنسبة لفتاة مقعدة؟

كان جسمها النحيل يرتعش وكأنها أصيبت بحمى مفاجئة. إنما تابعت:

- شكرا لله... إنني لا أعير أي اهتمام لهذه الصراحة المرتبطة بمرضي، أجل، لا تغمز بعينيك ولا تحزن لقد قلت الحقيقة، أو لأنك تأتي لزيارتنا، اقتربي وحسب سأتدبر نفسي بنفسي دون أن ألجأ إليك، وعندما آمل أعرف كيف أتخلص منك. أنظر.

ومدت يدها نحوي ورأيت آثار جرح كبير، وأكملت:

- ولكنني لم أحسن الوصول إلى النهاية، لقد وصلوا إلي في الوقت المناسب وضمدوا جراحي، إنني أفضل الموت على أن أكون الفتاة التي يشفق عليها أحد.. والموت عندي أهون من رأفة الناس.

وإذا بها تقف فجأة وتندفع إلى الأمام ثم تهوي من فوق مقعدها.

- أظن هذا يكفي دقيقة أخرى وينتهي الأمر وأرتاح من رحمتك الملعونة، ثم تتعزون جميعا، أنت وأيلونا، وحتى أبي أيضا ستتخلصون من التي تعتبرونها عارا كبيرا عليكم:

قفزت من مكاني عندما رأيتها تتهاوى وأخذتها بين ذراعي وكأن نارا حامية قد مستها فصرخت وهي تحاول الخلاص مني:

- دعني، كيف تجرؤ أن تلمسني انسحب إنني أتصرف كيفما أشاء، ابتعد وإياك أن تقترب مني مرة أخرى.

لم أبتعد عنها كما أرادت، بل رحت أحاول كي أبعدها عن هذا المكان الخطر، ولكنها لم ترتدع، بل لكمتني في صدري بقبضة يدها ثم قالت:

- إليك عني أيها المتوحش، انصرف وإياك العودة هنا ثانية.

ثم أعملت يديها تحاول النهوض دون الاستعانة بي، وكلما اقتربت منها محاولا أن أساعدها كانت تنطوي على نفسها وتصرخ كالهرة الشرسة:

- اذهب ولا تلمسني.

وفجأة وصل المصعد وتقدم منا الخادم فحمل الفتاة دون أن يتطلع إلي وأنزلها إلى غرفتها وبقيت أنا أتأمل الأواني المحطمة وما تركته العاصفة بعد مرورها.

لست أدري كم بقيت من الوقت شاردا حائرا دون أن أجد الدليل القاطع لهذا الانفجار المفاجئ.

- عفوا أيها الكولونيل...

هل تسمح لي بأن أمسح ثيابك المبللة؟

عندئذ فقد تنبهت لوجودي.

- لعله من الأفضل أن أرسل السائق إلى الثكنة كي يأتيك بثياب جديدة بدلا من هذه.

كان الخادم يوجه هذه الملاحظات كشخص حيادي لا دخل له في الموضوع قطعيا، ولكنني لحظته مرتبكا، وفي كلامه رعب وخوف وقال:

إنني متأكد من أن الآنسة أيلونا ستحزن كثيرا، إنها تقوم بخدمتها الآن وتخفف عنها، كما أنها كلفتني كي أنقل لك بأنها ستأتي إلى هنا بعد قليل وترجو أن تنتظرها.

تأثرت جدا عندما عرفت كم يحبون تلك الفتاة المريضة... إنهم يصفحون عن كل شيء ويدللونها قدر المستطاع، لا بل أكثر نويت أن أقول بعض الكلمات الطيبة لهذا الكهل الصالح ولكنني اكتفيت بأن ربت على كتفه وهمست:

دع هذا يا عزيزي جوزيف، لا تزعج نفسك، سيجف كل شيء تلقائيا، اعتن أنت بالأواني المحطمة وسأنتظر أنا أيلونا.

إن هذا ليسرني، أن يوافق سيدي الكولونيل على الانتظار، كما أن السيد كيكسفالفا سيعود قريبا وسيسر بانضمامه إليكم.

أتت أيلونا ولم ترفع عينيها إلي... بل نظرت إلى الأرض واقتربت مني وقالت:

- إن أديت ترجوك أن تنزل إلى غرفتها ولو دقيقة واحدة، مجرد برهة قصيرة إنها تلح وترجوك.

نزلنا الدرج سويا ولم تنبس ببنت شفة وما أن وصلنا إلى

الباب حتى همست أيلونا تقول:

- عليك أن تكون لطيفا معها الآن، لست أدري ماذا حدث بينكما فوق، ولكنني أعرف ثورتها وانفجارها، الكل هنا يعرفون هذا يجب ألا تغضب منها.

كما أنه لا يمكننا أن نتصور مدى الألم الذي يقاسيه إنسان سمر من الصباح حتى المساء فوق مقعد.

لم أقل لك شيئا، إذ لم يكن ذلك ضروريا، لأن أيلونا لاحظت انفعالي، قرعت الباب بهدوء فأتاها الجواب شبه مسموع، دخل، ثم عادت تهمس:

- لا تمكث وقتا طويلا.

دخلت دون أن أحدث ضجة، تطلعت في الغرفة فلم أجد شيئا وإذا بصوت خافت يأتيني من الحديثة ويقول:

- هنا، فوق هذا المقعد، سوف لا أحتجزك طويلا.

اقتربت، وبفضول انتظرت أديت مني أن أجلس، ثم قالت بارتباك:

- اعذرني إن كنت قد استقبلتك هنا، ولكن صداعا ألم بي وأجبرني على ذلك.

- ماذا تقولين، إنها غلطتي، كان علي أن...

- أكيد، ألا تحقد علي إذن؟

- أبدا...

- وستعود إلينا كما هي الحال الآن؟

- تماما ولكن بشرط واحد.

- أي شرط؟

أن يكون لك ثقة أقوى ولا ترتابي البتة حول إهانتي..

كيف تريدين أن نفسر هذه الأمور الصبيانية فيما بين الأصدقاء؟

كنت أود أن أراك اليوم كما رأيتك بالأمس منشرحة، لقد فكرت بك طيلة المساء.

- تقول:

فكرت بي... طيلة المساء؟

وتطلعت إلي كمن يشك في صدق كلامي.

- أجل... طيلة المساء... يا لها من أمسية رائعة لا أنساها أبدا ويا لها من نزهة ممتازة هي الأخرى.

- أجل... ممتازة... أجابت ذلك وهي شاردة، واستطردت:

- علي أن أخرج دائما، ولكنني أبدو في الأحيان خجولة لا

أجـرؤ على القـيـام بشيء، إذ أنني أتصـور الناس يتطلعـون إلى عكازاتي مشفقين وهذا ما أكرهه، ليت هذه الحالة لن تجعلني بائسة، هكذا تقترب من نهايتها وتريحني إلى أبد الآبدين.

- سترتاحين عما قريب... إنما عليك التمسك بالشجاعة والصبر لمدة قليلة فقط... ورفعت هامتها قليلا ثم قالت:

- هل تعتقد فعلا أن العلاج الجديد سيشفيني؟ كنت أثق بالدكتور كوندور ثقة كبيرة.

ولكنني أعلم أنه ليس من يعلم بهذا سواك.

شعرت أمس وبينما كان يفحصني بأنه يقوم بدور الممثل الكوميدي، ظهر لي أنه غير أكيد من عمله، ولم ألمس فيه تلك الصراحة التي عهدتها فيه دائما، كنت في ذروة السعادة يوم سمعت أنه ينوي إرسالي إلى سويسرا، إنما هذا لم يبدد الخوف المتأصل في حنايا ضلوعي، إنما أرجوك أن لا تحادثه بشيء من هذا إذا ما حدث واجتمعت إليه ثانية. ثم إياك أن تفكر بحق السماء أن العلاج الجديد سوف لا يؤتى ثماره عاجلا، وكأنه وجد ليطمئن أبي وحسب..

ثم ماذا تراني صانعة أمام هذا؟ كيف لا تريدني أن أكون مترددة وأشك بنفسي وبالآخرين عندما أخبرني أننا سننتهي من العلاج في أقرب وقت ممكن... لا... فأنا لا أستطيع احتمال هذا الانتظار اللانهائي...

- عليك ألا تغضبي وتذكري ما سبق ووعدتيني به.

- أجل إنك محق، ولا أظن أن هذا، سيجدي نفعا... عندما نتألم سيتألم الآخرون لألمنا، ولكن قل لي بربك، ماذا يستطيعون إزاء هذا على كل لا أريد التحدث بهذا أبدا ولا أريد أن أشكرك لتحملك ثورتي وغضبي منذ لحظات، فأنت تبرهن عن طيبة قلب تجاهي ولم يسبق أن وجدت لديك ما يثير مخاوفي، ومرة ثانية آرجو ألا نعود إلى مثل هذا الحديث مطلقا.

- وهو كذلك، كوني واثقة، والآن أرجوك أن ترتاحي.

نهضت ومددت يدي لها مصافحا، كان منظرها مؤثرا بينما استمرت مستلقية تبتسم لي ورأسها فوق الوسادة البيضاء وفجأة ارتعشت وسألت:

- يا إلهي ماذا حل بملابسك؟

لقد شاهدت البقع المنتشرة فوق ثيابي، ولكنني لم أدعها تتمادى بالحديث إذ اختصرت مجيبا.

- لا شيء مهم، لقد لطخها صبي شقي عندما أوقع كوب الماء الذي يحمله من يده.

- وأظنك قد أحسنت تأديبه؟

لم أجد ذلك ضروريا، بل لقد تقدم مني يطلب السماح، إنما عليه أن يكون أكثر تأدبا في المستقبل وأكثر انتباها.

ماذا يترتب عليه أن يفعل؟

- أن يتحلى بالصبر، أن يكون لطيفا ومرحا، أن لا يبقى طويلا بالشمس، وأن ينفذ أوامر الطبيب، والآن عليه أن يسكت ويخلد إلى النوم...

تصبحين على خير.

غادرتها وقلبي مطمئن، وما أن اقتربت من باب الحجرة حتى سمعتها تضحك وتقول:

- والآن، أخبرني، هل الولد الشقي يستمر عاقلا؟

- تماما سينال أعلى الدرجات، إنما عليه أن ينام الآن.

فتحت الباب نصف فتحة وحاولت أن أخرج وإذا بها تستوقفني ضاحكة وتسأل:

- ماذا يعطون الولد الشقي عندما ينام؟

- قولي أنت ماذا يعطونه؟

- إنهم يقبلونه...

تملكني شعور مزعج أمام هذا الطلب المفاجئ... إذ كان في صوتها شيء من الشهوة لم يعجبني أبدا، ولمعت عيناها بحمى الحب الجارف، ومع ذلك لم أرد أن أخالفها.

- بكل سرور...

ـ إنما أرجو المعذرة... إذ نسيت ماذا يتوجب علي أن أفعل.

واقتربت منها ومررت بشفتي على وجهها وإذا بها ترفع يدها وتأخذ رأسي ثم إذا بها تشدني إليها وتطبق بفمها تلتهم شفتاي بعنف وقسوة.

لم يسبق لي أن ذقت قبلة بهذا الطعم الوحشي... لم يكن هذا ليكفي بل ظلت ممسكة بي تشدني إليها بقوة وحزم..

وفجأة تراخت يداها وابتعدت عني تعبث بشعرها... استمر هذا لحظة وعاودت الكرة بحماس يفوق أي حماس وراحت تقبل كل قمة من وجهي ويدي وما أن تتركني برهة حتى تعود ثانية أقوى وأشد شهوة، وأخيرا تركتني وألقت برأسها فوق الوسادة وهي تردد:

- والآن... اذهب يا حبيبي... اذهب يا حياتي... وبقية الأمل المتبقي لي...

عبرت الممر مسرعا كي لا يراني الأب والأخت كنت أخاف أمر الفضيحة ولذلك قلت في نفسي:

هيا علي أن أهرب قبل أن يفتضح أمري.

- لم أوفق بذلك لقد سبق السيف العذل وها هي أيلونا تلتقي بي وتقول:

- مالي أراك شاحب الوجه هكذا، هل حدث خلاف بينكما

مرة أخرى؟

تمتمت مجيبا:

- أبدا لا شيء... اعذريني إذا انصرفت الآن أشعر بتعب خفيف.

كان في صوتي ما ينم عن ارتباكي، وإذا بأيلونا تأخذني من ذراعي وتدفعني إلى أريكة قائلة:

اجلس، واستعد أنفاسك سأذهب لإحضار شيء تشربه.

وعادت وهي تحمل شرابا وناولتني كأسا منه.

ثم جلست بجانبي ولم تقل شيئا، بل اكتفت ما بين لحظة وأخرى أن تنظر إلي، وأخيرا سألتني:

- هل قالت لك أديت شيئا يخصك أنت شخصيا؟

تمتمت بارتباك:

- نعم.

- لم تبد أية حركة، بل انحنت وقالت:

- والآن... الآن فقط تنبهت إلى ما قالته لك.

كيف تريدينني أن أفترض شيئا كهذا؟

شيء مبهم، جنون، كيف خطر ببالها أن تفكر بي؟

وتنهدت أيلونا ثم أجابت:

- يا إلهي، وهي التي كانت تفكر دائما أنك تأتي إلينا إكراما لها ومن أجلها ولم أصدق مطلقا أن يحدث شيء كهذا منذ البداية.. وأنا أظن بأن ذلك لم يكن سوى رحمة منك وعطفا، إنها تعيش منذ أسابيع تغذي هذه الفكرة...

وعندما طلبت منها أن تهدئ روعها سألتني إذا كنت أعرف إنك تحبها.

لم أستطع أن أتمالك نفسي لمدة أطول:

- لا يجب أن تنزعي هذه الفكرة من مخيلتها، إنه جنون وعبث صبياني، عليك أن تشرحي لها هذا مطولا.

هزت أيلونا رأسها وأجابت بأسى:

- لا أيها الصديق... إن أديت لا تمزح في مثل هذه الأمور وهي تأخذ هذه القضية جادة، يؤسفني أن لا ألبي طلبك لأنني أعجز عن تذليل صعاب كهذه.

آه لو عرفت ماذا يحدث في هذا البيت، تقرع الجرس بدون شفقة مرتين وثلاثاً في ساعة متأخرة من الليل، وما أن أجلس بجانبها حتى تعود فتسألني نفس السؤال:

هل تظنين أن بإمكانه أن يحبني ولو قليلا، فهذا القليل يكفيني ولا أرغب في المزيد، كما أنني لست ببشعة إلى درجة

تجعله ينفر مني... أليس كذلك يا أيلونا؟ ثم تطلب مني أن آتيها بكأس من المثلجات وما أن أحضره حتى ترميه على الأرض... وما أن تمر ساعة على هذا حتى تكرر نفس الشيء مرة أخرى وأظنك تذكر قصة الساحرة يوم التقينا بها ليلة العرس.

لقد كتبت رسائل مطولة جدا ومزقتها، ثم أعادت كتابتها ومزقتها من الصباح الباكر حتى آخر الليل، لا تفكر إلا بأمور كهذه، طلبت إلي يوما أن أزورك وأسألك إذا كنت تحبها أم لا... أو إذا كانت تزعجك بأنك لا تحادثها حديث الحب أبدا...

كان علي أن أذهب للقائك بسرعة ولذلك طلبنا إلى السائق أن يعد العربة، كانت تعيد أمامي مرتين وثلاثاً وأربعاً كل كلمة من التي سأقولها لك، سينتهي كل شيء بالنسبة إليك، عندما تتركها وراءك وتغلق الباب عليها، أما هي فمن هنا تبدأ تساؤلاتها، ستدعوني إليها بعد قليل لتسألني:

وإذا قلت لها إنك تحبها تصرخ بي قائلة: إنك تكذبين... إنك تكذبين... لم يقل لي ولو كلمة حلوة واحدة...

ومع ذلك تريدني أن أراجع ذلك وأحلف لها مئات المرات، ووالدها لقد تغير كثيرا... فهو يحبك أكثر من ابنه ويتخذك كمثل أعلى في الحياة...

آه لو رأيته وهو يجلس بقرب سريرها يواسيها ويخفف عنها وأنت بربك ألم تلاحظ شيئا من هذا؟

- لا ... لا ...

أحلف لك...

أقسم لك...

إن ذلك لمستحيل...

كما أنك تجهلين ماذا حدث الآن في الغرفة، لقد تصرفت باحتقار وأنا الذي لم يحمل لها إلا الشفقة والأخوة.

سكتت أيلونا واستمرت تتطلع أمامها شاردة ثم تنهدت وقالت:

- أجل، هذا ما توقعته قبلا، وها هو يحدث الآن ولا أعرف ماذا سيحدث بعد ذلك.

كنا نجلس صامتين وقد قلنا ما عندنا من كلام، وها نحن الآن أمام مأزق لا نعرف كيف نخرج منه بحل يرضي الطرفين.

سمعنا ضجيج سيارة تقترب من المنزل فنهضت أيلونا وقالت:

- ها هو والدي أتى يجب ألا تلقاه الآن، إنك تبدو في حالة عصبية مرهقة... سآتيك بخوذتك وسيفك وستخرج من الباب الذي يفضي إلى الحديقة العامة وسأختلق الأعذار لك وأخبره نك لم تستطع أن تمضي السهرة معنا...

قفزت أيلونا مسرعة تبحث عن حاجياتي وللمرة الثانية سللت كاللص وخرجت خلسة.

كنت أعتقد حتى ذلك الحين أن أشد أنواع العذاب هو الحب غير المتبادل، ولكن تبين لي أن هناك ما هو أشد وأصعب، أن تحب رغم إرادتك وعندما تحاول الدفاع عن نفسك لا تستطيع، إن الذي يحب ويشقى بحبه يمكنه ترويض غرامه لأنه ليس هو فقط الذي يتألم.

بل هو الشخص الذي يخلقه الألم ليسيطر عليه ويعمل فيه، أما إذا لم يتوصل إلى ذلك فيكون ألمه أقل وعلى كل الوجهين نتيجة لخطأ. وعندما تحاول المرأة أن تدافع عن نفسها ضد حب لا تتقاسمه مع شخص آخر فهي تخضع فقط لقانون الجنس المتأصل فيها.

وكذلك كلمة الرفض تبقى طبيعية بالنسبة لها،وحتى عندما تندفع في شهوتها العارمة لا يمكننا أن نصفها بالقساوة أو نتحامل عليها ضد ما في طبيعتها من أنوثة.

كيف حدث ووصلت إلى المدينة فهذا ما لا أذكره بوضوح، كنت أعلم أنني أسير بسرعة وكلي استعداد على أن لا أعود إلى القصر مرة أخرى مطلقا.. كنت أتمنى أن أختبئ أو أصبح إنسانا غير مرئي، وذهبت إلى غرفتي وسمعت صوت طرقات خفيفة على الباب... قلت لمساعدي:

- لست مستعدا لاستقبال أحد.

ولكنه فتح الباب ودخل يحمل بيده رسالة:

رسالة؟ أخذتها منه وتفحصتها جيدا، كانت كثيفة تشبه الرزمة. وشعرت بأن يدي تحترق وأنا أمسك بها، لم أكن بحاجة لفضها ولا لأعرف من هو مرسلها وقلت:

- فيما بعد، دعها الآن.

كانت غريزتي تردد: لا تفتحها الآن... ولكنني لم أستطع المقاومة بل فتحتها ورحت أقرأها... ست عشرة صفحة من الحجم الكبير مكتوبة بخط يد مرتجفة وخط سريع شبه مقروء... رسالة غريبة فريدة من نوعها... كتلك الرسائل التي يتسلمها الإنسان مرة واحدة في حياته.

وابتدأت الرسالة بقولها:

- ست مرات حاولت أن أكتب لك وعدت أمزق الورق من جديد. لم أكن مستعدة لخيانة نفسي ولا أريد ذلك بأي شكل كان.. منعت نفسي عن هذا مدة ثم انهرت فيما بعد..

تعاركت مع نفسي أسابيع وأسابيع كي أبدد كياني أمامك أو اصهره فيك، كنت آمر يدي بأن تبقيا جامدتين لا تتحركان طيلة زيارتك لنا أو أتصنع السخرية لكي لا تخونني نظراتي، وتفضح ما يختلج به صدري وينبض به قلبي..

جربت كل ما هو في استطاعة الكائن البشري وحتى ما هو فوق استطاعته وحدث اليوم ما حدث، حدث ما لم أكن أتوقعه ولذلك فكرت وتساءلت عن السرعة التي حدث فيها وفقدت أنا

السيطرة على قواي، لأنني أعرف أنه يؤلمك جدا أن أفرض نفسي عليك وأنا الفتاة المريضة المقعدة، أنا المشلولة لا يحق لها أن تحب.. كيف يمكنني وأنا الفتاة التي حطمها الحظ أن أكون عبئا عليك؟

شخص مثلي، أكرر لا حق له بالحب، بل يحق له أن ينزوي بعيدا ويرتجف في إحدى الزوايا لا يزعج الآخرين ويموت دون أن يدري به أحد، حاولت الاحتفاظ بالسر حتى أستعيد قواي وأصبح فتاة طبيعية أو امرأة مثل بقية النساء وأمسي لائقة بك يا حبيبي، عليك أن تفهم أنني شغوفة بك منذ زمن بعيد...

ولكن للأسف فحبي هذا لا يزعجك بشيء ولا يؤثر بك البتة لذلك... أرجوك ألا تنزعك ولا يعتريك الخوف من أجلي.. سأنتظر وأنتظر حتى يرأف الله بي ويعيد لي صحتي كما أرجوك مرة ثانية وحياتي، ألا تشك ولو لحظة بحبي لك، وتذكر أنني حبيسة في زنزانتي وأن عليك أن تفكر في زيارتي، إني أنتظر بصبر وأناة أن تأتي إلي وتهبني ساعة...

تسمح لي أن أنظر إليك برهة وأسمع صوتك ثم أشعر بأنفاسك تلفح وجهي الملتهب، أشعرني بوجودك... أنت سعادتي الوحيدة التي وهبها الله لي.

ولكن علي أن أبقى مقعدة أروض أعصابي ملتزمة الصمت... انتبه لكل نظرة ألقيها وكل كلمة أتفوه بها.

ولكن صدقني يا حبيبي إن السعادة وإن كانت مؤلمة أحسبها بالنسبة لي أنا سعادة تامة.

ولكن إن حصل شيء، فالآن حصل كل شيء، ولا أستطيع أن اخبئ ما حصل أو أخفيه، أرجوك لا تكن قاسيا بحكمك علي..

لا أطلب إليك أن تجيبني أو تبادلني حبا بحب، كما لا أطلب منك تضحية ولا شفقة وحتى في الحلم لا أريدك أن تفكر بي وتحبني كما أنا.

وأرغب أيضا أن تتهاون وتتسامح في حبي لك، إذ أنه الشيء الوحيد الذي لا أستطيع تحمله كما أنا.

ولكن لا، لا تخف، وليست هذه تهديدات ولا تظنني أريدك أن تبدل الحب بالشفقة وهو الشيء الوحيد الذي وهبني إياه قلبك.. قل لي بسوعة كلمة واحدة تكفي، فمنذ اللحظة التي أغلقت الباب وراءك...

تركتني فريسة للحزن والأسى، كنت شاحبا عندما رأيتك في اللحظة الأخيرة، فقد اختفى سيفك وكذلك خوذتك بسرعة البرق، ولكن لا يا صديقي لست هنا لألومك على تصرفك، وأفهمك جيدا، إنما الذي يخيفني هي تلك الآلات التي تشدني دائما إلى الأرض..

آت إلينا من وقت لآخر وارسل لي كلمة أو أي شيء آخر، لا فرق، أريدك أن تعرف أنني لا أدري كيف أفكر أو أتصرف..

مازلت لم تسامحني بعد، كما أنني سوف لا أعيش طويلا إذا رفضت لي حق حبك؟

قرأت الرسالة مرتين وثلاثا، كنت أعيد قراءتها ساعة بعد ساعة وكل مرة أشعر بأن رأسي سينفجر وقلبي سيتحطم أمام هذا الحب البائس. إلى أن يغلبني النعاس ولكن الأحلام تكون في حقيقة الأمرِ أصعب من الواقع..

أو بمعنى آخر هي تعبير عن الواقع وإذا شئنا دقة التعبير فهي حياة نعيشها في النوم... ونتمنى ألا نستيقظ منها وفي بعض الأحيان إلا في مثل حالتي فهي تصبح الجحيم الذي لا يطاق.





عدت مرة أخرى إلى قراءة الرسالة، ولكنني توقفت بعض الوقت وأخذت في التفكير لأن هناك ما شدني إلى الوراء...
قلت في نفسي:

- لا تقرأ وخاصة اليوم، ثم لماذا تشغل نفسك بهذه القضية ولا تحاول التخلص منها مهما كان الأمر، إنك على ما يبدو لا تقدر على الصمود أمام هذه الحزازات.

كما أنك تزعج نفسك وتتألم أمام شخص يحبك ولا تحبه، ليذهب إلى الشيطان بكل عائلة كيكسفالفا فإنك لم تكن تعرفهم في السابق، دعهم الآن.

وفجأة اعترتني فكرة رهيبة... من يدري...؟

لعل أديت أقدمت على فعل شيء يضر بها...

الانتحار مثلا...

ثم ما الذي يمنعها؟

لقد مر وقت لا بأس به ولم أجبها على رسالتها...

ماذا لو كلفت أحد الأصدقاء بحمل ردي إليها لكي تطمئن وتهدئ من روعها وتعيد إليها ثقتها في حبي شيئا فشيئا.

وإذا بي أتلقى رسالة ثانية منها تقول:

(مزق رسالتي السابقة...

لقد كنت مجنونة عندما كتبتها...

لا أساس للصحة فيها...

ثم إياك أن تأتي لزيارتنا غدا...

أرجوك ألا تأتي...

إذ علي أن أحتكم إلى نفسي مهما كلفني ذلك ولا أبدو بشكل يدعو إلى الشفقة والرحمة أمامك...

لا تأت أبدا لأنني لا أريدك أن تأتي...

إنني أمنعك من ذلك...

لا تجاوب على الرسالتين...

مزق الرسالة الأولى واحرق الثانية لا تفكر..

انسنى كلية).

كنت مشتت الأفكار لا أرغب في رؤية أحد... أريد أن أسير. وأسير دون توقف، ولكن أسير إلى أين، ليس لدي هدف أو مشروع اذهب... اذهب...

كانت دقات قلبي تأمرني بذلك... وتحثني كل نبضة على الهروب... اذهب حيث أشاء وأهجر هذه الثكنة الملعونة، وهذه المدينة المشئومة.

وكلمت أحد الأصدقاء في أن أترك الخدمة العسكرية وأذهب معه إلى فيينا وبعد أن حاول أن يثنيني عن هذا القرار... وافق وصافحته بحرارة وما هي إلا سويعات حتى كنا في طريقنا إلى فيينا...

وقلت له:

- أشكرك.

- ليس هناك ما يستحق الشكر... إنه أمر طبيعي أن تطلب المساعدة وأساعدك ولسوف أتصل بمدير إحدى الشركات وهو صديق حميم لي وأخبره أنك محتاج إلى عمل وسوف يدبر هو العمل المناسب بك وبمؤهلاتك...

ومع ذلك أريدك أن تعود إلى نفسك وتختلي بها مرة أخرى، لأنني كما سبق وقلت لك أود أن تبقى في الجندية... ومهما كان جوابك أو القرار الذي ستختاره يمكنك دائما أن تعتمد علي... وستجدني بخدمتك.

تطلعت والشعور الجارف يغمرني إلى ذلك الرجل الذي أرسله لي القدر.

لقد أراحني بدماثة خلقه من الترجي والاستعطاف، لقد ساعدني بكل قواه ودون أن أدري...

ساعدني على إعداد تقرير عاجل عن استقالتي... وها أنا الآن حر... بفضل هذا الإنسان الطيب، غدا سينتهي كل شيء وستبدأ حياة جديدة بالنسبة إلي.

ولكن شيئا جديدا حدث ولم أكن أتوقعه.

وفي اللحظة التي كنت أدس يدي في جيب سترتي... شعرت

ـرجفة ومقاومة...

ماذا هناك؟

تساءلت، ورحت أتحسس، وتراجعت أصابعي فجأة، لقد ـفهمت، إنها رسائل أديت التي مازلت أحتفظ بها.

كما أنني شعرت بقناع داخلي يتمزق، وبسرعة البرق تكشف ي مدى الكذب والخداع الذي كنت أبني عليه شجاعتي ـافتخاري، كنت أتهرب في الحقيقة من آل كيكسفالفا، إنني ـاهب الآن لأنه لم يعد بوسعي تحمل حالة كهذه...

ان يحبني إنسان ولا أبادله نفس الشعور. فعلا لم يكن هربي ـاتجا عن كوني قد أهنت... لا... إنما هو الحقيقة هرب مفتعل ـلؤه الخوف والتراجع.

ولكننا غالبا ما نتراجع أمام شيء قد سوي وصمم، مازلت ـد كتبت استقالتي وقدمتها.. لماذا تريدني أن أهتم بها أو أفكر ـيها... لتنتظر... أو لتذهب إلى الجحيم... ستجد بملايينها ـجلا آخر... ولنفترض أنها لم توفق، فما دخلي أنا بالموضوع؟

وها أنا أترك الجيش.. شفيت أم لم تشف، فليس هذا من ختصاصي، ولست ذلك الطبيب البارع حتى..

ولا شأن لي بعلوم الطب قطعيا، وذكرتني كلمة طبيب الدكتور المعالج لها دكتور كوندور، إنه المسئول عن علاجها

وشفائها.. عليه أن يكون بجانبها ولا يفارقها دائما.. ألم يدفعوا له من أجل ذلك؟

إنها مريضته هو وليست مريضتي أنا؟ ولعل أحسن ما أقوم به تجاهها هو الذهاب والبحث عنه، وأخبره بأنني انسحبت من القضية وتركت كل شيء على عاتقه هو ليتصرف كيفما يشاء.

وصممت على ذلك، إنما كان علي في الدرجة الأولى ألا أدع الشك يتسرب إلى نفسه بأنني أتهرب من آل كيكسفالفا وألا يعرف ما حدث بيني وبين الفتاة، ثم إذا حدث هو تلقائيا وسألني سأنكر كل شيء وأنفي كل علاقة مشبوهة.

توقفت العربة أمام العنوان الذي سجلته نقلا من دليل التليفون، وعلى مدخل المنزل قرأت اللافتة فاطمأن قلبي إلى العنوان الصحيح...

وتطلعت إلى ساعتي فوجدتها تشير إلى السابعة وصعدت إلى حيث الشقة التي يقطن بها وأخذت في قراءة بعض المجلات الطبية... ولاحظت أن هناك سيدة يبدو أنها لا تبصر، تروح وتغدو في الشقة، ثم أنها تبادلت معي حديثا عصبيا عن سبب وجودي في هذه الفترة التي لا يستقبل الدكتور فيها أحداً.

ولم يكد صوتها يعلو حتى دخل الدكتور كوندور وحياني بحرارة، ثم تطلع إلينا وفهم الوضع وما يدور بيننا من حوار عصيب، ولكنه استمر هادئا مسيطرا على برودة أعصابه.

وضع الدكتور يده فوق المرأة وقال:

- أقدم لك يا عزيزي الكولونيل زوجتي.

فانحنيت ثم تمتمت بعبارات الترحيب.

ثم قال الدكتور لزوجته:

- إنه لجميل منك أن تجلسي إلى الكولونيل وتحدثيه، طيلة غيابي، بادرة طيبة منك ولاشك...

أشكرك عليها يا عزيزتي:

- اعذرني يا سيدي...

كنت أقول له إن عليه أن ينتظر حتى تتناول طعامك... كما أنني أخبرته تفصيليا بما يعانيه الطبيب من شقاء إذا ما أراد خدمة مواطنيه، والعمل على تأدية رسالة الطبيب حق تأديتها. سامحني إذا قلت له أن يرجع ويقابلك غدا...

- إنك مخطئة في هذا يا عزيزتي، إن هذا الرجل لا يشكو من أي مرض كان، إنه صديق وحسب.

ومن عادته أن يزورني كلما أتى إلى فيينا، أما السؤال الأكبر هو، ماذا أعددت لنا كطعام غداء؟

وقلت:

- لا... أشكرك يا دكتور، علي أن أذهب في الحال.

إذ لا أريد أن أتأخر عن القطار، مررت من هنا كي أحمل إليك التحيات من هناك، ويمكن تأدية ذلك في غضون دقائق قليلة.

وسأل الدكتور وهو يتأملني جيدا:

- هل كل شيء على ما يرام هناك؟

ثم أردف:

- إن امرأتي تعرف ما يصمني أكثر مما أعرف أنا. إنني جائع الآن ولا يمكنني أن أفعل شيئا ما لم أتناول ما أسد به رمقي.

ثم قال مخاطبا امرأته:

- هيا بنا نتغدى يا عزيزتي سينتظر الكولونيل برهة سأعطيه كتابا يقرأه وإنه يود الخلود إلى الراحة.

عفوك يا سيدي لن يطول حديثنا أكثر من عشر دقائق، إذ لا أريد أن يفوتني القطار كما سبق وأن قلت لك.

مرت دقائق وعاد كوندور يقول:

- انتظرني سأعود إليك بعد عشرين دقيقة ثم نتكلم على كل شيء بالتفصيل، تمدد فوق هذه الكنبة وانتظر، إن وجهك شاحب ولا يعجبني يا عزيزي..

تبدو تعبا، منهكا، علينا أن نستعيد قوانا قبل الشروع بالحديث.

ونادته امرأته فأجاب:

- نعم يا عزيزتي كلارا، ها أنا آت كنت أعطي الكولونيل كتابا كي يتسلى به ولا يزعجه الانتظار.

كنت تعبا بالفعل وما إن استرخيت فوق الكنبة حتى نمت، فجأة شعرت بيد تربت على كتفي، أفقت وإذا بي أمام الدكتور.. لقد دخل الغرفة على مهل ولم يرد إزعاجي:

- ابق، ابق، سأجلس بقربك، سأطلب إليك شيئا واحدا هو أن نتحدث بصمت منخفض فأنت تعرف أن فاقدي الإبصار مرهفو السمع، بالإضافة إلى الذكاء الذي يتمتعون به، قل ما تريده. فمنذ رأيتك عرفت أن الأمور لا تسير كما أرغب.

- هذا ما كنت أتوقعه، كيف أنني لم ألاحظ منذ البداية هذا، فبقدر ما نشاهد المريض ننسى المرض..

هذا يعني أنني تنبأت بمن اندس بين الفتاة وبيننا.. إنك تذكر جيدا يوم سألت والدها إذا ما كان هناك إنسان آخر حضر إلى داره وكلم الفتاة بشأن علاجها فنفى، إنما المؤلم في المسألة كوننا لم ننتبه إلى النتائج إلا بعد حدوثها، يا إلهي كن عونا لهذه الفتاة المسكينة.

- إني معك في كل شيء يا دكتور، فجنونها ونتائجه أكثر من

أن تحصى، ولذلك يجب أن تنتزع كل هذه الأمور من رأسها، يجب أن تقول لها:

- نقول لها ماذا؟

- حسنا إن هذا الهيام ما هو إلا مجرد تصرف صبياني، تصرف مبهم، عليك أن تحاول مهما كلفها الأمر.

- تريدني أن أقول لها لا تشعري بالذي يدور في خلدك ألا تحبي الذي تحبينه.

هل سبق لك وسمعت أن المنطق تغلب على الحب العنيف..

أم تريدني أن آمرها قائلا اذهبي ونامي، ابتعدي عن الحب لأنك فتاة مقعدة لا تصلحين لشيء، ثم هل تصورت النهاية التي سيؤدي إليها كل هذا؟

- ولكن يجب عليك أن.

- لا تخجل ودعني أسألك.. ما هي الظروف التي تحول دون حبك لأديت؟

- أية ظروف تعني؟

- التي تجعلك تنفر منها؟

- ليس هناك شيء مما تدعيه، إنما الذي شدني إليها هو حزنها وإقعادها، هو الألم الذي يحز في نفسها.

- حسنا إن هذا يطمئنني في بعض النواحي.

- ألا تعلم أنني كتبت استقالتي من العسكرية؟

ودفعت إليه بالرسالة المكتوبة التي تفيد ذلك وبعد أن قرأها قال:

- إليك كتابك لا أريد أن أكون شريكك في الجريمة.. ستقع عليك وحدك مسئولية كل ما يحدث سواء لك أم لها.

ومرة ثانية قال الدكتور:

تتركها تظن...

- دعنا من هذا الآن، لا تفكر به، فكر فقط في مساعدة الغير دون تمييز فقط في هذه الناحية، لا تتركها تظن في هذه الفترة أن حبها لك يزعجك، كرر كل صباح ثمانية أيام من الرجولة الحقة ألا تستطيع هذا؟

قلت دون تردد:

- بلى.

ثم أضفت:

- موافق... موافق...

تملكني شعور غريب وأنا أهبط السلم، ماذا تغير في، كنت أردد حتى أستحوذ على ثقة الجميع؟

ما الذي جعل هذا الإنسان الغريب يستكين إلي؟

من أجل فتاة تموت حبا وهياما بي؟ أم هناك من يريد أن يوهمني ذلك.

لم أعرف سوى الساعة، لا بل الدقيقة التي سألقى بها أديت، كنت أعرف أن لقاءها سيكون حارا، وستطلب إلي إذا ما كنت قد سامحتها أم لا أو أنها ستقول هل يؤلمك حبي حتى تبتعد وتهرب مني؟

إن نظرة واحدة تكفي لهدم ما اتفقت عليه أنا وكوندور، أما إذا أحسنت التصرف فسأنجو وأنقذ حياة إنسانة.

وما أن عبرت ردهة القصر في اليوم التالي حتى لاحظت أن أديت لم تكن مستعدة لتستقبلني بمفردها، لقد أخذت الاحتياطات اللازمة إذ أنني سمعت النسوة يتحادثن معها بفرح، من المؤكد أنها دعتهن لمثل هذه اللحظة العصيبة.

أسرعت أيلونا لاستقبالي قبل أن أدخل الصالون، ثم قادتني من يدي وأخذت تعرفني وتقدمني إلى الموجودين وتحاشيت أن أنظر إلى أديت ولكنني كنت أشعر بنظراتها تلهب كل شيء في، وجاءت أيلونا وأسهمت بتسوية الأمور وقالت:

- يمكنكما أن تلعبا البريدج، كما أنه يجب علي أن أعد لوازم السفر وسأعود إليكما بعد ساعة واحدة...

وسألت أديت:

- هل تريدين اللعب؟

أجابت وهي تتطلع إلى الأرض:

- إذا لم يكن لديك مانع.

بدت أديت عاجزة عن اللعب في الدورة الثانية، إذ بدأت تصوب ضربات خاطئة ثم اعتراها رجفان خفيف في أصابعها فدفعت الحجارة جانبا وقالت:

- هذا يكفي، أعطني سيجارة.

ناولتها واحدة وأشعلتها لها، وما أن لمع النور حتى تأملتها مليا وتلاقت أنظارنا، كانت عيناها متعبنين شاردتين يتآكلها الغضب البارد المخيف وقلت مرتاعا:

- لا، لا أرجوك.

تراجعت إلى الوراء وهنا رأيت جسدها يرتعش، بينما كانت أصابعها تتكمش أكثر فأكثر بذراعي الكرسي.

ورجوتها للمرة الثانية إنه لا داعي للانفعال.

ولم أقل هذه الكلمات لأطفئ نيران العاطفة ولكن البكاء المرير انفجر، بكاء مؤلم مؤثر يقطع نياط القلوب.

وانحنيت فوقها ووضعت يدي على كتفها لتهدئتها وارتجفت

وكأن تيارا كهربائيا صعقها أو نوعا من التمزق قد أصابها.

وفجأة توقف الاهتزاز في جسدها ولم تعد تتحرك ليخال أن الجسد ينتظر ويتحسن كي يفهم ما يعني هذا الاحتكاك.

كان رأسها مائلا إلى الوراء وأن من يراها على هذا الحال يظن أنها نائمة تتلذذ من جراء حلم لذيذ.

لم أعرف كم استمر ذلك لأن مثل هذه الأحداث لا تدخل في دوران الزمان.

بدأت أتضايق من جمودي هذا، لم يكن الحب ليزعجني أو لمسات اليد، هي تلك الأصابع التي تروح وتجيء...

لا... إنما شعرت بأن يدي باتت ميتة لا حراك فيها وكأنها ليست عضوا حيا من جسمي الملتهب. كنت أريد أن أضع حدا لهذا اللعب الخطير وهكذا بدأت على مهل أسحب يدي رويدا رويدا ولكن الفتاة لاحظت قبل أن أتبينه أنا..

وفجأة وكأن شيئا ما مسها، تركتها ثم تقلصت أصابعها وراحت تتلاعب بشعرها وعادت العاصفة تنذر في الأفق، وهمست قائلا:

- لا... لا... ستدخل أيلونا عما قليل.

لم يؤثر فيها هذا التنبيه وظنت أن إعادة يدي إلى حضنها من جديد ما هو إلا شفقة مني وليس حبا وكدت أفشل من جديد.

عبثا رددت أقول في نفسي: دعها تحبك تجاهل؟ تعامى طيلة هذه الأيام الثمانية. لا تصنع شيئا يجعلها تظن بأنك تخدعها..

كن طبيعيا، هادئا كل الهدوء، حاول أن تزيد صوتها فرحا، كن ناعما وأنت تلمس يديها، إن الذي يحب يتمتع بقوة رؤية فائقة تساعده على دراسة الشخص الذي يحب، وهكذا ستنهار أعصابي دفعة واحدة أمام نظراتها الفاحصة، ولذلك عندما كانت ترفع نظرها إلي كنت أنا أخفض نظري إلى الأرض.

وحدث بعد مرور ثلاثة أيام أنني كنت وأديت نتناول الطعام مع والدها وأيلونا وحدث بعض الضجيج فحملت أديت سكينها فجأة وقالت:

- إذا كان الضجيج يزعجك يمكنك أن تبقى في الثكنة فإنه لا يزعجنا أبدا:

تمتم والدها وكاد يغص بالطعام:

- ما بك يا ابنتي؟

- هذا صحيح يا أبي.. فلماذا لا يأخذ عطلة لنفسه.. إذا كان الأمر يتعلق بي مباشرة فإني أمنحه إياما بكل سرور.

وتبادل الأب وأيلونا النظرات المخيفة لأنهما يعلمان ما يعقب هذا الاعتداء المبهم، وقلت أنا:

إنك على حق يا أديت لست بذلك الرفيق وخاصة عندما أصل إلى هنا منهوك القوى أعرف تماما أنني أزعجك اليوم.

إنما عليك الاعتصام بالتسامح وفكري أنه لم يبق إلا ثلاثة أيام فقط ويصعب علي المجيء إلى هنا، إذ لم يتبق إلا أربعة أيام فقط على رحيلك إلى سويسرا للعلاج:

فاجأتني بضحكة هستيرية وأزاحت نظرها بعيدا وقالت:

- آه، أربعة أيام إنه يعرف تماما كم يتبقى له من الوقت ليتخلص منا حتى إنه يعد الساعات، وأظنه يقيد ذلك في مفكرته.

كان ضحكها يزداد وجسدها يرتجف أكثر وأكثر حتى خلناها تحاول الوقوف وتستعد للخروج وقالت أيلونا:

- سأذهب لاستدعاء جوزيف.

ولكن أديت أشارت لها واعتمدت عليها وعلى والدها في حملها إلى غرفتها وغادرت الحجرة دون أن تتفوه بكلمة أو تستأذن في الانصراف.

بقيت وحيدا حتى عادت أيلونا وأخذت في الاعتذار إلي، وكنت أشبه بإنسان سقط لتوه من الطائرة ويحاول النهوض دون أن يعرف ماذا حدث له. وقالت أيلونا:

- عليك أن تفهم جيدا أنها لا تخرج أبدا.. إن فكرة السفر تزيد من ارتباكها وقلت لها:

- أجل يا أيلونا إنني أعرف ذلك.. أعرف كل شيء ومن أجل هذا سأعود غدا.

* * *

واتصلت أيلونا بي تليفونيا في اليوم الثاني ورجتني في عدم الحضور إذ أن أديت لم تتحسن حالتها وأنها تخشى أن ألقاها فتسوء الأحوال عما هي عليه وأنهت المكالمة قبل أن أطرح عليها بعض الأسئلة.

ولم يعد باستطاعتي المقاومة وأعصابي باتت لا تحتمل شيئا.. يجب وضع حد لهذه المأساة.

وفي يوم وصلت إلى الثكنة بعد أن قمت بالتدريبات المعتادة وما أن دخلت إلى حجرتي حتى وجدت السيد كيكسفالفا ينتظرني وكان من هول المفاجأة ما عقد لساني عن الكلام حتى قال الرجل:

اعذرني يا سيدي الكولونيل إذا دخلت حجرتك بهذه الطريقة ودون أن أعلن عن اسمي، إنما رجاني الدكتور كوندور أن أنقل تحياته إليك..

إنه يعتذر عن عدم لقائك لارتباطه بالسفر فورا إلى فيينا ومن أجل هذا سمحت لنفسي بالدخول إليك.

- إنني أعد هذا تلطفا منك يا سيدي وأقدر موقفك تماما،

تفـضـل بالجـلوس... وتنـاول الحـديث عن أيلونا بعض الوقت ثم سـألته عن أديت فنظر إلي بحـزن وقال:

لقـد اختـارت الثـياب والكتب التي يجـب أن تحـملهـا مـعـهـا.. حتى الفراء الثمين الذي أحضرته لها من فيينا وضعته في علبته الفاخـرة وفجـأة حدث ما لم أكن أتـوقعه لا أنا ولا أيلونا استطعنا أن نفسـر ذلك التغييـر المفاجئ إذ أنها راحت تقسم أنها لن تذهب مهما كانت الظروف.

وأنه ليس هـنـاك من قـوة عـلى الأرض تجـبـرهـا عـلى ذلك، سـتـبقـى في البـيت ولو اشـتـعلت به النـار وأتت على كل مـا فـيـه وسـوف، لا تثير هذا الموضوع ثانية وسـألته:

- لماذا تفعل هذا؟

وقال:

- إنها تقـول إنها لا تـريد أن تـتـخدع ثانية.. إن العـلاج الموعود ليس سـوى وسيلة لإبعادهـا عن الشـفـاء، لقـد قـررت أن تبقـى.

وقلت له:

- لماذا تفعل كل هذا.. إنني فعلت لها كل شيء لأهدئها قلت لها:

- لا شـيء.. لم تقل لها شيئـا عليك أن تعرف سكوتك يجعلها مجنونة وأنها لا تنتظر منك سوى كلمة واحدة، الكلمة التي يقولها

المحب لحبيبته وخاصة عندما يكون واثقا من شقائها..

لماذا تريدها أن تنتظر أكثر مما تفعله فتاة أخرى، إنها لن تتضرع إليك ولن تترجاك ولكنك لا تقول شيئا ولا حتى كلمة تجعلها تطير فرحا وترقص اعتزازا، إنني عجوز مريض وبعدي يؤول إليك كل شيء.. ملاييني وقصري..

يمكنك أن تحصل على كل شيء وستكون سببا في سعادتها.

وما أن انتهى من حديثه حتى سقط فوق مقعده مسترخيا من التعب، وكنت أنا أشعر بانهيار تام في قواي، عندئذ فهمت قوة الألم الذي يعاني منه هذا المخلوق البائس، وأبديت كل استعداد لتعزيته فقلت له وأنا أنحني فوقه:

- ثق بي... وسأفعل كل ما بوسعي، إنما الشيء الذي قلته في آخر كلامك مستحيل.

وتسمر الكهل وراح يتطلع إلي شاردا مشدوها وأخيرا استطاع أن يقف ويقول بصوت شبه مسموع:

- إذن فقد انتهى كل شيء.

واستدار ليغادر الغرفة.

ولكني قلت له:

- أعدك أن يتم ذلك بعد الشفاء، قل لها ذلك، وسأحضر أنا غدا لأكرره لها...

فانحنيت فوقها وقبلتها من فمها وتمت الخطوبة، وفجأة تناولت أديت يدي وقالت:

- دعها لي لحظة... أرجوك.

لم أكن أعلم ماذا تريد أن تفعل إنما شعرت ببرودة في أصابعي...

كانت تلبسها خاتما ثمينا إلى جانب خاتم الخطوبة، لم أعبأ بذلك، بل تناولت يدها وقبلتها قبلة رقيقة.

وعدت إلى الثكنة وما أن دخلت إليها حتى أخذت أسمع كلمات التهكم من زملائي على السيد كيكسفالفا وابنته وضحكات السخرية من المهنة السابقة للوالد وعجز ابنته.

ودخلت إلى غرفتي وخلوت إلى نفسي أفكر.. إنني أعرف ماذا فعلت.. وماذا يجب علي أن أفعل، خطبت الفتاة مساء وبعدها لم أستطع أن أواجه مجموعة قليلة من الناس فكيف أخرج بها إلى الدنيا...

أأحملها أم أتقاعد مثلها، يا للجبن والخيانة... لقد خنت تلك الفتاة التي أحبتني بكل جوارحها... إنسانة مريضة وبريئة.. وعلى مسمع مني تركت رفاقي يتهكمون عليها وعلى أبيها.. سيعلم المعسكر كله غدا بذلك.

ليس هناك من حل سوى الانتحار، سأكتب إلى أديت

وأخبرها بذلك.. إنه أفضل من أن أخون حبها أبد الدهر، وظللت طوال الليل تؤرقني الأفكار حتى اتخذت قرارا بمقابلة رئيسي في العمل.

وما أن أشرقت شمس الصباح حتى توجهت إلى رئيسي وشرحت له كل الموضوع ونظر إلي نظرة فاحصة وقال:

- ماذا تريد مني؟

- جئت أستأذنك في النقل من هنا.

وفكر الرجل قليلا ثم قال وهو يربت على كتفي:

إذا كان هذا ما تريده، فأنا أوافق لك عليه.

- شكرا، يا سيدي.

وانتهت القضية بسفري إلى سازلو، كما أراد رئيسي الكريم الخلق.

***

وصلت سازلو في المساء، وحينما وصلت أرسلت برقية إلى كوندور وأخبرته بما حدث ورجوته أن يتصل بأديت ويخبرها عن هروبي وأسبابه، وبينما أنا مسترخ في حجرتي بالفندق إذا بالخادم يخبرني من خارج الغرفة بأنه توجد مكالمة تليفونية لي.

واندهشت من يعرف أنني هنا غير كوندور..

وهل وصلت إليه البرقية في غضون هذه الساعات القليلة؟

قفزت من الفراش واندفعت إلى الخارج.

وتناولت سماعة التليفون: ألو... ألو...

لم أحصل على رد، فأعدت الكرة وكانت النتيجة واحدة.

وسألت موظفة التليفون:

- هل تلقيت الإشارة؟

فأجابت:

- لا يا سيدي إنه نداء من فيينا.

إذن هو من كوندور ويبدو أنه أعلم أديت وسامحتني على ذلك وأنها الآن تنتظر عودتي..

وأخذت أنتظر المكالمة ولكن الموظفة قالت:

- لقد ألغيت.

وعدت إلى غرفتي ونمت حتى الصباح واتصلت بكوندور في الصباح الباكر ووجدته في منزله واستمر حديثي معه ثلاث دقائق عرفت بعدها كل شيء...

لقد وصل إلى القصر وأخبر أديت أني غادرت الثكنة ولم تتسلم أديت البرقية التي أرسلتها إلى كوندور فظنت أني تركتها إلى الأبد وألقت نفسها من الشرفة، وعندما استدعى كوندور

كانت لا تـزال على قيد الحياة... أما عندما ألغيت المكالمة فكانت قد فارقت الحياة...

ماتت أديت إذن... لا... لم تمت... أنا قتلتها...

قتلت الإنسانة التي أحبتني...

ولكن هل أحببتها أنا...

نعم... أحببتها...

إنهـا كـانت سـبب سـعـادتي ولم أكن أعلم ذلك، هل دخلت الجندية لأقتل الأعداء أم لأقتل الأحباء...

ما هذا...

أهذه دموعي... لا...

إنه اعترافي، إنه دليل الإثبات على جريمتي.

واستحالت الغرفة إلى ظلام...

لى سراب...

وسقطت أنا في الهاوية... وحدي.

تمت

تميزت أعمال ألبرتو مورافيا بالبراعة والواقعية لنفاذه إلى أعماق النفس البشرية، فقد هاجم مورافيا الفساد الأخلاقى فى إيطاليا.

ألبرتو مورافيا
Alberto Moravia



ألبرتو مورافيا كاتب إيطالى ولد فى روما عام ١٩٠٧م وتوفى فى عام ١٩٩٠ فى مدينة روما التى عاش فيها جل حياته. يعتبر من أشهر كتاب إيطاليا فى القرن العشرين، وهو يكتب بالإيطالية ويتكلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية. ترجمت معظم أعماله إلى عدة لغات عالمية، كما تحول العديد من رواياته إلى أفلام سينمائية. يتسم أدب مورافيا بتبسطه فى سرد مشاعر الجنس لدى أبطال رواياته والتداخلات فى الأحداث التى تنشأ عبر تلبية تلك المشاعر والرغبات، حيث أنه يتسم بالتركيز على التحليل النفسى لنوع العلاقة بين الجنسين أو الزوجين.

W.Salama 010 15 17 873





9 789775 079350

